المركز القومي للترجمة

تيتزيانو تيرتساني

خطابات ضد الحرب

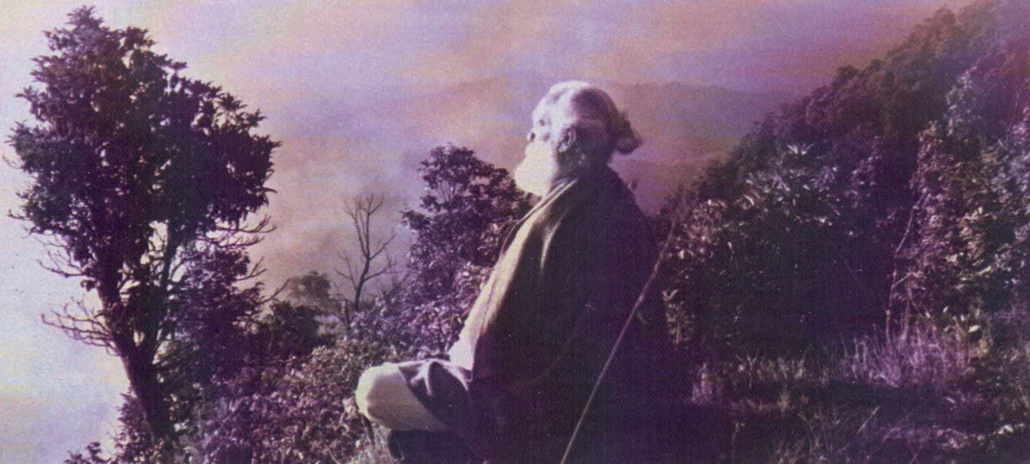
ترجمة: أماني فوزي حبشي

مراجعة: حسين محمود

2646

لم يعد العالم ذلك الذي عرفناه في يوم ما، لقد تغيرت حياتنا بالتأكيد. ربما كانت هذه هي الفرصة لنفكر بطريقة مختلفة عما فعلنا حتى هذه اللحظة، إنها الفرصة لكي نعيد اختراع المستقبل وليس لنعيد صناعة المسار الذي قادنا نحو ما نحن فيه اليوم، والذي ربما يقودنا إلى لا شيء. لم يتعرض بقاء الإنسانية واستمرارها للخطر مثلما يحدث له في هذه اللحظة.

ونحن على وشك الدخول في واحدة من الحروب ينبغي أن نذكر أنه لا يوجد في الحرب شيء أخطر من أن يستهين المرء بقوة عدوه، ويتجاهل منطقه، ولمحاولة إنكار من أنه يمتلك أي عقل، وأن يصفه "بالمجنون". إلا أن جماعة الجهاد الإسلامية، تلك الشبكة السرية والدولية التي كان يرأسها الشيخ أسامة بن لادن، والتي كانت بالتأكيد وراء الهجوم/التحدي الصادم على الولايات المتحدة، والتي هي بالتأكيد بعيدة تمام البعد عن ظواهر "الجنون"، وإذا أردنا بالفعل أن نجد طريقًا للخروج من نفق مُفزع وجدنا أنفسنا وقد ألقينا فيه، لابد أن نفهم: حسابنا مع من، ولماذا؟!



تصميم الغلاف: نيرفانا

خطابات ضد الحرب

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2646
- خطابات ضد الحرب
- تيتزيانو تيرتسانى
- أمانى فوزى حبشى
- حسين محمود
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:

Lettere Contro La Guerra

Par: Tiziano Terzani

Copyright © 2002 Longanesi & C., Milano.

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

خطابات ضد الحرب

تأليف: تيتزيانو تيرتساني

ترجمة: أماني فوزي حبشي

مراجعة: حسين محمود



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

تيرتسانى، تيتزيانو: ١٩٣٨ - ٢٠٠٤ خطابات ضد الحرب
تأليف: تيتزيانو تيرتسانى؛ ترجمة: أمانى فوزى حبشى؛
مراجعة: حسين محمود
ط١ -القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٦
١٤٤ص؛ ٢٤سم
١ - القصص الإيطالية
(أ) حبشى، أمانى فوزى (مترجم)
(ب) محمود، حسين (مراجع)
(ب) العنوان ٨٥٢

رقم الإيداع ٢٠١٤/١٧٠٣١/
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-718-826-5
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

١٠ سبتمبر ٢٠٠١: اليوم المفقود

فى الحياة توجد أيام لا يحدث فيها شىء، أيام تمر بلا ذكر، بلا أثر، وكأنها خارج الحياة. عندما أمعن التفكير أجد أن هذا هو طابع معظم الأيام، ولكننا لا نسأل كيف تركنا الأيام تمر بهذه الطريقة أمام أعيننا إلا عندما يصبح عدد الأيام الباقية لنا محدودا جدا. ولكن هكذا هو الإنسان: لا يقدر ما فات إلا عندما تمر الأعوام ويصبح الشىء فى عداد الماضى، عندئذ ندرك أنه كان بمقدورنا الحصول عليه، وعادة ما يكون الأوان قد فات.

إن العاشر من سبتمبر ٢٠٠١ بالنسبة لى، وبالنسبة لآخرين أيضًا، كان يومًا من هذا النوع: يوم لا أتذكر عنه أى شىء على الإطلاق. أعرف أننى كنت فى مصيف أورزينيا، وأن الصيف قد انتهى، وبدأت الأسرة تتوزع من جديد فى كل اتجاه، وربما كنت أعد ملابسى وأوراقى لأعود إلى حيث بياتى الشتوى، فى الهند.

كنت أفكر فى الرحيل بعد عيد ميلادى، ولكننى لم أكن أحصى الأيام، ومضى العاشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ دون أن أشعر به، وكأنه لم يكن له وجود فى التقويم. يا للأسف! لأنه بالنسبة إلىَّ، وبالنسبة لنا جميعًا - حتى بالنسبة لأولئك الذين يرفضون حتى هذا اليوم تصديق هذا الأمر - كان ذلك اليوم يوما خاصا جدا، أحد تلك الأيام التى كان لابد لنا أن نستمتع بكل لحظة منها. كان اليوم الأخير لحياتنا الماضية: قبل الحادى عشر من سبتمبر، قبل البرجين التوأم، قبل الهمجية الجديدة، قبل تحديد حرياتنا، قبل التعصب العظيم، قبل الحرب التكنولوجية ومذابح السجناء والمدنيين الأبرياء، قبل الزيف العظيم ونزعة التوافق، واللامبالاة، وأسوأ من كل هذا، قبل الغضب البائس والكبرياء فى غير موضعها. إنه اليوم الأخير قبل أن يسقط خيالنا المحلق نحو المزيد من الحب والأخوة والروحانية والسعادة والفرحة إلى هاوية الكراهية والتمييز والمادية والألم.

أعرف: فى الظاهر لم يتغير الكثير، أو ربما لا شيء تقريباً فى حياتنا الشخصية. فالمنبه يضرب كل يوم فى الساعة نفسها، ونقوم بالعمل نفسه، وما زالت الهواتف المحمولة المختلفة ترن فى عربات القطار، وما زالت الصحف تصدر كل يوم بجرعاتها المعتادة من أنصاف الأكاذيب وأنصاف الحقائق. ولكنه وهم، وهم لحظة الصمت، ذلك الصمت الفاصل بين رؤية انفجار من بعيد ووصول صوته الرعدى إليك. أما الانفجار فقد وقع. وكان انفجاراً ضخماً ومريعاً، وسوف يصل صوت الانفجار فيما بعد إلينا، وسيصم آذاننا، وربما اكتسحنا معه أيضًا. من الأفضل أن نستعد فى التوقيت الصحيح، أن نفكر قبل أن نبدأ فى الركض هربا، حتى ولو كان الركض مجازيا، فى محاولة إنقاذ الأطفال، أو فى أن نلتقط شيئًا أخيراً نضعه فى حقائب أيدينا.

لقد تغير العالم، لابد أن نتغير نحن أيضًا بدورنا. قبل كل شيء لا بد لنا أن نتوقف عن التظاهر بأن كل شيء لا يزال كما كان، وأنه يمكننا الاستمرار فى الحياة، بخسة، حياة عادية. مع كل ما يحدث فى العالم، لا يمكن أن تكون حياتنا، ولا يجوز، أن تكون عادية، لابد لنا من أن نخجل من تلك الحياة العادية.

إن هذا الانطباع بأن كل شيء قد تغير يصدمنى على الفور، اتصل بى أحد أصدقائى هاتفيا وقال لى ببساطة: أدر التليفزيون، بسرعة. عندما فعلت ذلك، رأيت على الهواء مباشرة الطائرة الثانية وهى تنفجر، وفكرت: بيرل هاربر! إنها حرب جديدة.

مكثت ملتصقًا بالبى بى سى بعض الوقت ثم بالسى إن إن لبضع ساعات، ثم خرجت لأتجول فى الغابة. أتذكر الدهشة التى أصابتنى عندما أدركت أن الطبيعة لا تبالى بما كان يحدث، بدأت ثمار الكستناء فى النضج، والسحب الأولى بدأت صعودها إلى الوادى. فى الأفق كنت أسمع صوت انحدار الشلال البعيد، كالمعتاد، وصوت أجراس ماعز جارتى برونالبا. كانت الطبيعة بالتأكيد لا تبالى بمآسى البشر، كما لو كنا لا نساوى شيئًا بالفعل، وكأنه يمكننا الاختفاء دون أن نترك فراغا كبيرا.

ربما لأننى قضيت معظم سنوات نضجى فى آسيا، فأنا مقتنع تمامًا أن الكل واحد، وكما يلخص بشكل جيد رمز التاى لين ويان، ففى قلب النور بذور الظلمة، وفى قلب الظلام توجد نقطة نور، الأمر الذى تركنى أفكر فى أن ذلك الرعب الذى شهدته

الآن... فرصة جيدة. لقد رأى العالم كله ما حدث؛ الآن سيدرك الجميع، الآن سيستيقظون ليعيدوا التفكير في كل شيء، العلاقات بين الدول، وبين الأديان، العلاقات مع الطبيعة، العلاقة نفسها بين إنسان وآخر. كانت فرصة جيدة لنقوم بفحص للضمير، ولأن نتحمل مسئولياتنا بوصفنا رجالاً غربيين، وربما نقوم بعمل قفزة نوعية في مفهومنا للحياة.

في مواجهة ما رأيته للتو على التليفزيون وما نتوقعه الآن، لا يمكن للمرء أن يستمر في الحياة بطريقة عادية، وكأنك عند عودتك إلى المنزل رأيت الماعز وهي تأكل العشب.

لا أعتقد أنني في حياتي كلها جلست أمام التليفزيون مثلما فعلت في الأيام التي تلت هذا الحدث. كنت أجلس أمامه من الصباح إلى المساء، كنت تقريبًا لا أنام، كنت أفكر طوال الوقت في تلك العبارة: فرصة جيدة. بحكم المهنة، وأمام أي حقيقة رسمية كنت دائمًا أحاول رؤية إمكانية وجود أي بديل، في الصراعات كنت أحاول دائمًا أن أفهم، ليس فقط دوافع طرف من الأطراف، ولكن أيضًا دوافع الطرف الآخر. في عام ١٩٧٣، وبالاشتراك مع جون كلود بومونتي في لوموند والمصور "عباس"(*)، كنت أول من عبر خطوط الجبهة في جنوب فيتنام لأتحدث مع "العدو"، المتمثل في الجبهة الوطنية لتحرير جنوب فيتنام "الفيت كونج".

على النهج نفسه، وبغية أن نفهم الإرهابيين الذين كانوا قد حاولوا أن يُفجروا البرجين التوأم في نيويورك، كنت قد نجحت عام ١٩٩٦م، مرتين على التوالي، في الدخول إلى "جامعة الجهاد" لأتحدث مع أتباع أسامة بن لادن.

كنت أفكر في أنه سيكون من المفيد إعادة سرد تلك القصة باختصار، والانطباعات الناتجة عن تلكما الزيارتين، لكي نحاول تخيل العالم من وجهة نظر الإرهابيين، ولكنني لم أستطع الكتابة.

(*) مصور إيراني يعيش في باريس منذ عام ١٩٧٠م . ونشرت صوره في عدد من الدوريات والمجلات الدولية، إضافة إلى ثلاثة كتب، وغطى عددا من الأزمات السياسية والاجتماعية لبلدان الجنوب، من بيافرا إلى بنجلاديش إلى فيتنام إلى الشرق الأوسط إلى جنوب إفريقيا. (المراجع)

فى الرابع عشر من سبتمبر كان عيد ميلادى الثالث والسبعين، وهو التاريخ الذى تنتهى فيه رسميا علاقة عملى الجيدة مع مجلة دير شبيغل الألمانية، التى بدأت منذ نحو ثلاثين عامًا، ولكن أصبح بالفعل منذ عام ١٩٩٧م، بناء على طلب منى، كنوع من البيات الشتوى المتفق عليه.

وفى كتاب "فى آسيا"[1]، الكتاب الذى كان يجمع كل الحكايات الكبيرة والصغيرة والتى كنت شاهدًا عليها، قلت بالفعل كل ما كنت أرغب فى قوله عن الصحافة. ومنذ تلك اللحظة قمت بالفعل بالاعتزال عن العالم، فأنا أقضى جزءًا كبيرا من وقتى فى "الهيمالايا"، وأستمتع بشدة ألا يكون لدى تاريخ انتهاء لشىء سوى الطبيعة، فالظلام هو اللحظة التى أذهب فيها إلى مخدعى، وأستيقظ مع أول نور للصباح، حيث أسكن، فى مكان منعزل على مسافة ساعتين بالسيارة من أقرب مدينة آهلة بالسكان، وأكثر من ساعة سيرًا على الأقدام عبورًا بغابة من الأشجار الوردية العملاقة، لا يوجد نور ولا هاتف، وهكذا لا توجد أى مصادر للشرود هنا سوى ذلك الشرود المحبب مع الحيوانات والطيور والرياح والجبال. لقد فقدت عادة قراءة الصحف، وأيضًا عندما أذهب إلى أوروبا أشعر أننى أستغنى عنها بكل سرور، إن القصص تتكرر، ويبدو لى أننى قرأتها بالفعل منذ عدة أعوام، عندما كانت مكتوبة بطريقة أفضل.

إن الشتاء بالنسبة إلىّ هو أجمل فصول السنة فى الهيمالايا، السماء صافية جدا والجبال تبدو قريبة جدا. وصل بى الأمر إلى أننى وضعت خطط السفر، ولكن كما يقول الهنود وهم يشيرون إلى السماء: أتريد أن تُضحك باغوان (الإله)؟ حسنًا، أطلعه على خططك.

وهكذا قضيت عيد ميلادى فى الكتابة، ولم أكتب مقالا من تلك المقالات الصحفية التى أتقيد فيها بعدد معين من الكلمات، بمقدمة جذابة تشد عين القارئ، وإنما كتبت خطابا تلقائيا كأننى أكتبه لصديق.

أحب كتابة الخطابات، كنت دائمًا أتصور أننى لو كنت وُلدت غنيا، ومنذ ثلاثمائة عام، هناك حيث ولدت فقيرًا فى فلورنسا، لم أكن أتمنى سوى أن أسافر حول العالم

(١) دار نشر Longanesi ، عام ١٩٩٨م

لأكتب الخطابات. لقد سمحت لى الصحافة، بطريقة ما، بأن أفعل شيئًا مشابهًا، ولكن مع تحديد المساحة، وسرعة التسليم، ومتطلبات اللغة الصحفية. والآن، أخيرًا، يمكننى أن أكتب خطابات ببساطة.

ذلك الخطاب الذى أرسلته من "أورزينيا"، أرسلته عن طريق البريد الإلكترونى إلى فيروتشو دى بورتولى، مدير الكوريرى ديللا سيرا، مع رسالة مكتوب فيها: قرر أنت، حسب الاتفاق.

كنت قد تعاقدت مع الكوريرى على التعاون لعدة أعوام، ولكن عندما حان الوقت للتجديد، اخترت ألا أفعل شيئا بهذا الصدد، للسبب نفسه كنت أرفض أن أتلقى أى مقدم مادى على الكتب التى لم أقم بعد بكتابتها. لا أريد أن أشعر بأننى مُجبر على فعل أى شىء، ولا أريد أن تكون لدىَّ أى عقد بالذنب أو شعور بالواجب. وهكذا انتهى الأمر مع بورتولى بأننا اتفقنا على اتفاق جنتلمان، وبهذا شعرت بأننى حر فى أن أكتب عندما ووقتما وكما أريد، وهو أيضًا حر بأن ينشر أو لا ينشر، ولا يقوم بتغيير شىء إلا مكان الفصلات، وهذا ما حدث بالفعل.

الخطاب الذى نُشر فى السادس عشر من سبتمبر لم يكن بالعنوان الذى اقترحته: "فرصة طيبة"، ولكننى لم أستطع أن أتذمر، كما لم أحتج أيضًا أن أفعل ذلك فيما بعد. كان الخطاب يبدأ فى الصفحة الأولى، وما تبقى منه شغل الصفحة التالية بأكملها، كان جوهر كل ما أريد قوله فى ذلك الخطاب: دوافع الإرهابيين، دراما العالم الإسلامى فى مواجهة الحداثة، دور الإسلام بوصفه أيديولوجية مناهضة للعولمة، ضرورة أن يتجنب الغرب الحرب الدينية، اللاعنف بوصفه حلاً للخروج من هذا المأزق.

ألقيت بالحجر، وانتهى الأمر بأن قمت بإعداد ملابسى وأوراقى وذهبت إلى "فلورنسا"، استعدادا للرحيل. لم أكن متأكدًا من أننى ذاهب إلى الهيمالايا، فقد كانت العودة إلى خلوتى الرائعة رفاهية لا يمكننى السماح بها لنفسى. قال "بوش" هذه العبارة: سنشعل النيران لنخرج أسامة بن لادن من كهفه. وكان يجب علىَّ أن أقبل أن أسامة قام بإخراجى أنا من كهفى.

كانت الرغبة فى العودة إلى العالم، "النزول إلى السهل"، كما يقولون فى الهيمالايا، عندما يذهبون للتسوق، قد جاءتنى. فى "يولية" كانت قد صدرت النسخة

الأمريكية من كتاب "قال لى العراف"[1] وقد دعانى الناشر لأقوم بشىء بشع يقوم به الأمريكان يُدعى "jogging"، أى "الهرولة" وتتمثل فى "دفع" الكتاب لتسويقه بسرعة، وهو عمل يمكن ترجمته بكلمات بسيطة: أن يسلم المؤلف نفسه مثل طرد بريدى فى يد مجموعة من شباب العلاقات العامة غاية فى المهارة والحرفية، يتسلمونك ويأخذونك من الصباح إلى المساء فى السيارة، وفى الهليوكوبتر، من الساحل إلى الساحل، من مدينة إلى أخرى – أحيانًا مرتين فى اليوم – واضعين إياك أمام محاور من إحدى الصحف اليومية، لم يقرأ من كتابك إلا صفحة الغلاف فقط لا غير، وأحيانًا أخرى أمام مذياع لمحطة راديو لسائقى سيارات الأجرة أو محطة خاصة للساهرين، وأحيانًا أمام كاميرات التليفزيون لبرنامج تليفزيونى شهير، أو تلك البرامج الأكثر تواضعًا، والتى تُبث فى الصباح الباكر لربات البيوت، حيث يتحدثون عن القدر بين فقرتى وصفة سلطة الدجاج ونوع جديد من التزحلق المائى. لقد قمت بهذا لمدة أسبوعين، وكنت أتساءل إذا كان الأمر يستحق ذلك العناء! عدت من تلك الرحلة مصدومًا، ولدىّ انطباع مُرعب. لقد رأيت أمريكا متكبرة، بليدة الحس، متمركزة بالكامل حول ذاتها، سعيدة بقدرتها وبثرائها، بلا أى تفهم ولا فضول لمعرفة ما يحدث فى باقى العالم. لقد صدمنى الشعور المنتشر بالتعالى، والقناعة بأنهم متفردون من نوعهم وأقوياء، واعتقادهم بأنهم أصحاب الحضارة الأكيدة، كل هذا بلا أى نقد ذاتى.

فى إحدى الليالى، وبعد لقاء حول الكتاب فى معهد "سميثونيان" (Smithsonian Institut)، أخذنى صحفى مسن، أعرفه من سنوات، لأتمشى بين الآثار المختلفة فى قلب واشنطن، وخاصة ذلك المؤثر جدا لضحايا فيتنام، وذلك المسرحى والموحى لضحايا كوريا، وفى المكان الذى سيوضع فيه فيما بعد الأثر الخاص بضحايا الحرب العالمية الثانية.

الفكرة الأولى التى خطرت ببالى أنه بدا لى غريبًا أن تقوم دولة شابة، مؤسسة على أساس التطلع إلى السعادة، باختيار أن تضع فى مركز عاصمتها كل تلك الآثار المُكرسة للموت. قال لى صديقى إنه لم يفكر فى ذلك من قبل، وعندما أصبحنا أمام

---

(١) Longanesi, Milano, 1995.

الثمثال الضخم ناصع البياض "للينكولن"، الجالس على مقعد كبير أبيض فى نسخة بيضاء عملاقة لمعبد يونانى، قلت، وأنا أعرف أنه هو أيضًا قد زار بيونجيانج (عاصمة كوريا الشعبية): يُذكرنى "بكيم إيل سونج".

شعر صديقى بالإهانة، وكأننى تحدثت بسوء عن العذراء، قائلاً: إننا نحب هذا الرجل. امتنعت عن أن أنوه له أن أى شخص من شمال كوريا سيقول العبارة نفسها، ولكن كان هذا هو الانطباع الذى تركته لى أمريكا. لم تكن المقارنة متعلقة فقط بضخامة الآثار، بل كان فى واقع أن الأمريكيين بدوا لى هم أنفسهم ضحايا لنوع من غسيل المخ، الجميع يقولون الشىء نفسه، والجميع يُفكرون بالطريقة نفسها. والفارق هو أنهم، على خلاف الكوريين الشماليين، يؤمنون أنهم يفعلون ذلك بكامل حريتهم، ولا يدركون أن نزعتهم للخضوع تلك هى ثمار لكل ما يرون ويشربون، ولكل ما يسمعون ويأكلون.

شعرت بالخوف من أمريكا، وفكرت فى أن أعود إليها، ربما لأقوم برحلة لعدة أشهر أعبر فيها البلد كله، رحلة شبيهة بالتى قمت بها مع زوجتى أنجيلا عندما كنت طالبًا فى جامعة كولومبيا، كانت رحلة يقوم بها، فى الماضى، الصحفيون الأوروبيون، والذين يجلسون الآن فى نيويورك ملتصقين بأجهزة الحاسوب الخاصة بهم، حيث يرون ويقرؤون ما تريد أمريكا لهم أن يروا وأن يقرؤوا ليتمكنوا من استنساخه.

كانت التذكرة إلى دلهى فى جيبى بالفعل عندما اتصل بى صديقى المعتاد: هل قرأت ما كتبته؟ من؟ فاللاتشى(*)، لقد رددت عليك فى جريدة الكوريرى صباح اليوم. كانت الساعة الثالثة عصرًا فى يوم ٢٩ من سبتمتبر، واضطررت أن أتجول فى نصف فلورنسا حتى أتمكن من العثور على نسخة من الجريدة. كان الجميع يريدون الصحيفة فى هذا اليوم.

قرأت الصفحات الأربع وشعرت بحزن شديد. لقد أخطأت مرة أخرى، فلم تكن فرصة جيدة! كان الحادى عشر من سبتمبر هو الفرصة التى تسببت فى إيقاظ الغضب

(*) أوريانا فاللاتشى، صحفية إيطالية شهيرة، اشتهرت بمواقفها العدائية ضد المسلمين وبصفة خاصة المهاجرين، وخصوصًا بعد ١١ سبتمبر، ماتت بمرض سرطان الرئة عام ٢٠٠٦ . (المراجع)

الكامن فى كل واحد منا، كانت النقطة الأساسية لإجابة أوريانا ليس فقط إنكار دوافع "العدو"، ولكن أيضًا إنكار آدميته، وهو سر انتزاع الآدمية من الحروب كلها.

صدمنى الرد، بل أصابنى بالألم الشديد. لكل منا الحق فى مواجهة تقدمه فى السن واقتراب الموت، كان يؤسفنى أن أرى أنها اختارت طريق السخط والاستياء والندم، طريق المشاعر الأقل نبلاً وأعنفها. بكل أمانة شعرت بالأسى من أجلها؛ لأن العنف – كل يوم أزداد قناعة بذلك– يحول الجميع إلى وحوش، ليس فقط ضحاياه، بل أيضًا من يمارسه.

بدأت فى الكتابة، كان الخطاب فى هذه المرة موجهًا مباشرة إليها. نُشر الخطاب فى الكوريرى فى الثامن من أكتوبر، اليوم الذى كانت فيه الصحف تغطيها صورتا بوش وأسامة بن لادن، كانت أمريكا قد بدأت فى قصف أفغانستان. استطعت العثور على نسخة من الصحيفة فى مطار فلورنسا، كان ذلك فى الفجر، وكنت فى طريقى إلى باريس، ومن هناك كنت سأذهب إلى دلهى ومنها إلى باكستان.

كنت قد قررت أن "أنزل إلى الساحة"، كنت أدفع التكاليف من جيبى الشخصى، حتى أصبح حرًا بهذه الطريقة فى أن أكتب أو لا أكتب. كنت أشعر بأننى خفيف ولا "أمثل" إلا نفسى، وأن أجيب عن سؤال جواز السفر فى خانة المهنة بأننى "متقاعد".

الخطابات هى تلك التى قمت بكتابتها فى أثناء تلك الرحلة الطويلة، وتشير التواريخ إلى متى وأين تمت كتابة تلك الخطابات. فقط نصف ما سيلى فى هذا الكتاب نُشر بالفعل فى جريدة الكوريرى، ولكننى أريد أن أدقق بأن كل كلمة فى كل خطاب أرسلته إلى دى بورتولى قد نشرها بكل أمانة. وأنا ممتن كثيرًا لهذا، وأثق أن هذا أيضًا شعور قرائى، حتى وإن كنت أحيانًا، وخاصة بعد أن أصاب صاروخ أمريكى مقر قناة الجزيرة التلفزيونى المستقلة فى العاصمة كابول، كنت أخشى أن يقع آخر، بنوايا مشابهة، على شارع سولفيرينو فى ميلانو(*) .

الشيء الواضح أننى ودى بورتولى لا نتفق على الأفكار نفسها، فهو – على سبيل المثال – اختتم مقالته الافتتاحية ليوم الثانى عشر من سبتمبر بعبارة مشهورة،

(*) عنوان مقر صحيفة كوريرى ديللا سيرا التى كانت تنشر مقالات المؤلف. (المراجع)

هى التى تداولها الكثير فيما بعد: إننا جميعًا أمريكيون! حسنًا، أنا لست أمريكيا، فأنا أشعر بأننى فى أعماقى فلورنسى، بعض منى إيطالى والبعض الآخر أوروبى، ولكننى لا أشعر على الإطلاق بأننى أمريكى، حتى وإن كنت مدينًا لأمريكا بالكثير، ومنها حياة ابنى وحفيدى، حيث إن كليهما ولد هناك، وبطريقة جزئية حياتى أنا أيضًا، ولكن هذه قصة أخرى.

فى أعماقى أجد أنه من الصعب تعريفى بهذه الطريقة، لقد وصلت إلى عمرى هذا دون أن أرغب فى أن أنتمى لأى شىء، لا إلى كنيسة ولا إلى دين. لم تكن لدىَّ بطاقة انتماء لأى حزب، لم أسجل نفسى قط فى أى هيئة، لا إلى تلك الخاصة بالصيادين ولا إلى تلك الخاصة بحماية الحيوان. ليس لأننى بالطبيعة لا أتحيز للطيور وضد أولئك الرجال الأشرار المسكين بالبندقية ويطلقون نيرانهم مختبئين فى سقفية، ولكن لماذا أتقيد بأى منظمة؟ أحتاج لأن أشعر بأننى حر، وهذه الحرية متعبة، لأنه فى كل مرة، أمام موقف ما، عندما يحتاج المرء أن يقرر بماذا يُفكر، وماذا يفعل، يمكن فقط اللجوء إلى عقله هو، إلى قلبه وليس إلى الخط السهل، الجاهز للاستخدام لحزب ما، أو لكلمات نص مقدس.

بدافع غريزى كنت دائمًا بعيدًا عن السلطة، ولم أتملق قط من كان يمتلكها، كان أصحاب السلطة يتركوننى دائمًا فى حالة برود. إذا حدث ودخلت فى أى حجرة تحكم، كنت أدخل ممسكًا أجندة لأخذ ملحوظات، ومستعدا دائمًا لأن أكتشف عيبًا ما. لا أقول هذا لأفتخر، ولكن لكى أطمئن من سيقرأ الصفحات التالية، ويمكن أن يعتقد أننى أنتمى لدائرة معينة، أو لمؤامرة ما، وأن لدىَّ مشروعى الخاص، أو أننى أعمل على الدعاية لخطة فلان أو علان.

إننى بتلك الخطابات لا أحاول إقناع أى شخص، أريد فقط أن أجعل صوتًا ما مسموعًا، أن أقول جزءا ما من الحقيقة، أن أفتح جدلاً لكى نلتفت إليه جميعًا، لكى لا نستكمل التظاهر بأن شيئًا لم يحدث، والتظاهر بأننا لا نعرف بأنه الآن، فى هذه اللحظة، يعيش فى أفغانستان آلاف من الأشخاص فى رعب من أن يتم قصفهم بطائرات بى ٥٢، وأنه فى هذه اللحظة يوجد سجين ما، نُقل وهو مغمى العين ومربوط بسلاسل على بعد عشرين ساعة بالطائرة من بلده، يتم "التحقيق معه" على شريط أخير

من الأرض المحتلة للولايات المتحدة في جوانتانامو، في جزيرة كوبا، بينما استراتيجيات للتآلف ضد الإرهاب تعمل على إعداد عمليات هجوم أخرى على أي مكان آخر من البلاد في العالم.

عندئذ أقول: لنتوقف ونتأمل، لنحكم ضمائرنا، ليفعل كل منا شيئًا ما، وكما يقول جوفانوتي في أغنيته الشاعرية ضد العنف، والتي وصلت إلى هناك حيث أسكن في الجبال: "لننقذ أنفسنا".

لا يمكن لأي شخص آخر أن يقوم بهذا نيابة عنا.

في الهيمالايا الهندية، يناير ٢٠٠٢م

خطاب من أورزينيا

فرصة طيبة

أورزينيا ١٤ سبتمبر ٢٠٠١م

لم يعد العالم ذلك الذى عرفناه فى يوم ما، لقد تغيرت حياتنا بالتأكيد، ربما كانت هذه هى الفرصة لنفكر بطريقة مختلفة عما فعلنا حتى هذه اللحظة، إنها الفرصة لكى نعيد اختراع المستقبل، وليس لنعيد صناعة المسار الذى قادنا نحو ما نحن فيه اليوم، والذى ربما يقودنا إلى لا شىء. لم يتعرض بقاء الإنسانية واستمرارها للخطر مثلما يحدث له فى هذه اللحظة.

ونحن على وشك الدخول فى واحدة من الحروب ينبغى أن نذكر أنه لا يوجد فى الحرب شىء أخطر من أن يستهين المرء بقوة عدوه، ويتجاهل منطقه، ولمحاولة إنكار من أنه يمتلك أى عقل، وأن يصفه "بالمجنون". إلا أن الجهاد الإسلامى، تلك الشبكة السرية والدولية والتى يرأسها فى الوقت الحالى الشيخ أسامة بن لادن(*)، والتى كانت بالتأكيد وراء الهجوم/التحدى الصادم على الولايات المتحدة، والتى هى بالتأكيد بعيدة تمام البعد عن ظواهر "الجنون"، وإذا أردنا بالفعل أن نجد طريقًا للخروج من نفق مُفزع وجدنا أنفسنا وقد أُلقينا فيه، لابد أن نفهم: حسابنا مع من، ولماذا؟

لم يستطع أى صحفى غربى قضاء وقت طويل مع "بن لادن"، وأن يُراقبه عن قرب، ولكن البعض استطاع الاقتراب والاستماع إلى رجاله. حدث لى عام ١٩٩٥م، قضيت نصف يوم فى أحد معسكرات التدريب والتى كان يمولها على الحدود بين باكستان وأفغانستان. خرجت من هناك مصابًا بالفزع والرهبة. قضيت الفترة كلها فى وسط الشيوخ، القساة والمبتسمين، وكثير من الشباب ذوى النظرات الباردة والازدرائية، وشعرت كأننى مصاب بالطاعون، أو حامل لمرض ما لم أتعاطف معه قط. فى نظرهم

(*) مات أسامة بن لادن فيما بعد، عندما قتلته القوات الأمريكية فى باكستان عام ٢٠١١م. (المراجع)

كان مرضي ببساطة هو أنني غربي، وأنني أمثل حضارة منحطة ومادية، استغلالية، ولا تدرك شيئًا عن القيم الكونية للإسلام.

عثرت بالفعل على التأكيد بأنه بسقوط حائط برلين وبنهاية النزعة الاشتراكية، فإن الأيديولوجيا المقدر لها أن تعارض النظام العالمي الجديد وأمريكا على رأسه والذي يبشر بالسلام والرخاء في العالم المعولم، إنما هي تلك النسخة المتطرفة والمُسلحة للإسلام.

كنت قد استنتجت ذلك في المرة الأولى من خلال السفر في البلاد المسلمة لآسيا الوسطى والتي كانت جزءًا من الاتحاد السوفييتي[١]؛ كنت قد شعرت بالشيء نفسه تمامًا عندما قابلت المقاتلين المناهضين للهنود في كشمير، وأنا أحاور أحد قادتهم الروحيين، والذي صافحني وهو يهديني نسخة من القرآن - نسختي الأولى- حتى أتعلم منه "شيئًا ما".

عندما رأيت مرات عديدة - مذهولاً مثل الجميع - صور الطائرات التي تنفجر متسببة في مذبحة في وسط نيويورك، مثلما في الأيام السابقة، عندما قرأت الأخبار الخاصة بالرجال - القنابل الفلسطينيين، الذين كانوا يتسببون في نسف ضحاياهم المقتولين في شوارع إسرائيل، كنت أتذكر أولئك الشباب المنتمين إلى جنسيات مختلفة، ولكن ينتمون جميعًا إلى إيمان قوي وحيد، والذين سبق ورأيتهم في معسكر التدريب ذلك: كانوا أناسًا ينتمون لكوكب آخر، لزمن آخر، أشخاصًا "يؤمنون" مثلما كنا نستطيع نحن أن نفعل في الماضي، ولكننا لم نعد نستطيع ذلك، أشخاص يعتبرون التضحية بحياتهم من أجل قضية "عادلة" شيئًا "مقدسًا". أولئك الشباب كانوا من عجينة نجد نحن صعوبة كبيرة في تخيلها: إن استخدام السلاح بالنسبة لبن لادن ورجاله ليس مهنة، وإنما عقيدة تمتد جذورها إلى الإيمان الذي تم اكتسابه ليس فقط من المدارس القرآنية، ولكن أيضًا من الشعور بالهزيمة والعجز، لتقهقر الحضارة الإسلامية، تلك التي كانت في فترة ما تتسم بالعظمة وكانت لها مهابة يخشاها الجميع، ولكنها تظهر الآن مهمشة ومهانة من القوى العظمى وأمام كبرياء الغرب.

---

(١) كتبت ذلك في كتابي: عمت مساء يا سيد لينين، دار نشر لونجانيزي، ميلانو، ١٩٩٢
Buona notte, signor Lenin, Longanesi, Milano, 1992 (N.D.A)

إنها مشكلة واجهتها حضارات أخرى مختلفة على مدار القرون الماضية. واجه الصينيون هذا الشعور بالضآلة أمام "اللحى الحمراء" للإنجليز الذين فرضوا عليهم تجارة الأفيون الخاصة بهم، وشعر بها - أيضًا - اليابانيون أمام "السفن السوداء" للأدميرال الأمريكى بيرى، الذى كان يرغب فى فتح اليابان للتجارة. كان رد الفعل الأول هو الخوف. كيف كان يمكن لحضارتهم - التى كانت لفترة طويلة أعظم من حضارة الأجانب/الغزاة - أن يتم وضعها فى مثل هذا المأزق، وأن تتحول لمثل هذا العجز؟

بحث الصينيون عن حل، خاصة من خلال العودة إلى التراث، وعندما فشل هذا الحل، لجأوا إلى طريق التحديث، فى البداية اتبعوا النهج السوفييتى، ثم تحولوا الآن للنهج الغربى. أما اليابانيون، فقد قاموا بالفعل بهذه القفزة مرة واحدة، فى نهاية الثمانينيات، وذلك بأن قاموا بالتقليد الاستحواذى لكل ما كان غربيا، فنسخوا الأزياء الرسمية للجيوش الأوروبية، والعمارة الخاصة بمحطات القطار عندنا، وحتى من خلال تعلم رقصة الفالس.

طرح المسلمون - أيضًا - هذه المشكلة الخاصة بكيفية النجاة فى مواجهة الغرب خلال القرن الماضى، مع الحفاظ على هويتهم الخاصة، وكانت الحلول بالنسبة إليهم تتراوح بين الاحتماء بالتراث - مثلما هو الحال بالنسبة لليمن والوهابيين - وبين الأشكال المتنوعة لتقليد الغرب: كان النموذج الأكثر جسارة وأصولية هو ذلك النموذج الذى طبقه كمال أتاتورك فى تركيا، والذى قام فى العشرينيات بإعادة كتابة الدستور، نازعًا الحجاب عن النساء، ومستبدلاً الشريعة الإسلامية بنسخة من القانون المدنى السويسرى، ونسخة من القانون الجنائى الإيطالى، فوضع بلده على الطريق الذى يؤدى اليوم بإسطنبول، على الرغم من وجود بعض العراقيل، ليصبح جزءًا من المجموعة الأوروبية.

بالنسبة للأصوليين يُعد ذلك التحديث للعالم الإسلامى لعنة، وأن هذه العملية تهدد هويته الآن أكثر من أى وقت سابق. بالنسبة إليهم، كشف العالم الغربى، بنهاية الحرب الباردة، عن نواياه، بدا لهم أكثر وضوحًا ذلك المشروع - الشيطانى- بأن تُخضع الإنسانية كلها لنظام عالمى واحد، وهو المشروع الذى سيمنح الغرب - بفضل التكنولوجيا - القدرة على الدخول والتحكم فى كل الموارد الطبيعية فى العالم كله، بما

فى ذلك ما وضعه الخالق – وليس بمحض الصدفة كما يرى الأصوليون – فى الأرض التى نشأ فيها الإسلام، وانتشر، بدءًا من بترول الشرق الأوسط وصولاً إلى الغابات الإندونيسية.

فقط فى السنوات العشر الأخيرة كشفت ظاهرة العولمة تلك، أو ربما من الأفضل أن نطلق عليها ظاهرة "الأمركة"، قدرتها على الانتشار. وكان فى عام ١٩٩١م، أن تحول أسامة بن لادن، الذى كان حتى ذلك التاريخ من حماة مصالح الأمريكيين (كان أول عمل له فى أفغانستان هو بناء الملاجئ الضخمة تحت الأرض لتخزين الأسلحة الموجهة إلى المجاهدين لصالح المخابرات الأمريكية)، وأصبح معاديًا لواشنطن.

كان تمركز القوى الأمريكية فى بلده، المملكة العربية السعودية فى أثناء، وفى أعقاب حرب الخليج قد بدا له تجاوزًا وانتهاكًا لا يمكن احتماله لحرمة الأراضى المقدسة للإسلام.

أصبح موقف أسامة واضحًا عام ١٩٩٦م، عندما أطلق أول تصريح له بالحرب ضد الولايات المتحدة: "إن جدران القمع والإهانة لا يمكن هدمها إلا بقوة السلاح".

لم يعره أحد اهتمامًا كبيرًا آنذاك، ولكن موقفه أصبح أكثر وضوحًا عند إعلان تأسيس منظمة "القاعدة"، والتى أصبحت معروفة منذ عام ١٩٩٨م، فى أعقاب الاجتماع الذى ضمها مع الفرق الأخرى الموالية لبن لادن.

"منذ سبعة أعوام تشغل الولايات المتحدة أراضى الإسلام فى شبه الجزيرة العربية، مستولية بذلك على تراثنا، فارضة إرادتها على حكامنا، مثيرة الفزع لدى جيراننا، ومستخدمة القواعد العسكرية لشبه الجزيرة العربية لتحارب بها الشعوب الإسلامية" وكانت الدعوة موجهة لكل المسلمين هى "مواجهة وقتال وقتل" الأمريكيين.

كان الهدف الذى أعلنه بن لادن هو تحرير الشرق الأوسط، إن ذلك الحلم باسم الماضى البطولى ربما يكون شيئًا أكبر من ذلك بكثير. انطلقت الهجمات الأولى للجهاد ضد السفارات الأمريكية فى إفريقيا، ونتج عنها عشرات وعشرات من القتلى. كان رد واشنطن على تلك العمليات هو قصف قواعد بن لادن فى أفغانستان، ومصنع أدوية فى السودان، متسببة فى سقوط المئات، والبعض يقول الآلاف، من الضحايا المدنيين. لم

يتم التأكد قط من الرقم الدقيق، لأن الولايات المتحدة أوقفت تحقيقا كانت تديره الأمم المتحدة حول هذا الحادث.

كان رد بن لادن على هذا ما رأيناه يحدث أمامنا في نيويورك وواشنطن، ونظراً لأنه لم يكن يستطيع إصابة طياري بي-٥٢، والذين يطلقون قنابلهم بواسطتها، من على ارتفاعات يصعب الوصول إليها، ولا الوصول إلى البحار، حيث يطلقون صواريخهم من سفنهم الراسية في عرض البحر، كان الحل هو ذلك الحل الإرهابي بالهجوم على تجمعات من المدنيين الأبرياء.

إن ما فعله هؤلاء الرجال بشع، ولكنه لم يكن بلا سبب، فهو عمل حربي، لحرب لم تعد منذ فترة هي حرب الفرسان، ولكنها حرب كان قصف الشعوب العزّل فيها هو الظاهرة المشتركة بالفعل لكل الصراعات التي تمت في العمليات الحربية الأخيرة. بدءاً من تلك الخاصة بعملية V2 الألمانية ضد لندن وصولاً إلى قصف هيروشيما وناجازاكي بالقنبلة الذرية، والتي خلفت أكثر من مائتي ألف قتيل، جميعهم مدني.

يخوض الجميع منذ فترة بالفعل بوسائل وطرق جديدة حروبا غير معلنة، بعيدة عن عيون العالم، الذي يعتقد اليوم أنه يرى ويفهم كل شيء، فقط لأنه شاهد على الهواء مباشرة سقوط البرجين التوأم.

منذ عام ١٩٨٢م، قصفت الولايات المتحدة في الشرق الأوسط بلاداً مثل لبنان وليبيا وإيران والعراق. ومنذ عام ١٩٩١م، كان الحصار الاقتصادي الذي فرضته الولايات المتحدة على العراق تحت حكم صدام حسين في أعقاب حرب الخليج قد تسبب - تبعًا للتقديرات الأمريكية - في قتل نحو نصف مليون، العديد منهم من الأطفال، بسبب نقص الأغذية.

إن وفاة خمسين ألفا سنويا هي سقطة تخلق في العراق، وفي كل من يتماهى مع العراق، غضباً مماثلاً لذلك الذي تسببت فيه المذبحة في نيويورك، وبالتبعية أيضًا في أوروبا.

من المهم إدراك أن بين هذين الغضبين توجد صلة ما، وهذا لا يعني خلط الضحايا بالقتلى؛ بل يعني فقط إدراك أننا إذا أردنا أن نفهم العالم الذي نعيش فيه، لا بد لنا أن نراه في مجمله، وليس فقط من وجهة نظرنا.

لا يمكن أن نفهم ذلك الذى يحدث فقط من خلال الاستماع إلى تصريحات السياسيين المُجبرين - كما هو حالهم - على ترديد الصيغ المجازية، ومُجبرين على التصرف بالطريقة القديمة نفسها فى مواجهة موقف جديد تماماً، وغير قادرين على اللجوء إلى الخيال ليروا - على سبيل المثال - أن هذه هى ربما اللحظة المناسبة للوصول أخيراً إلى السلام، بداية من ذلك السلام المفقود بين الإسرائيليين والفلسطينيين بدلاً من اللجوء إلى الحرب؛ إلا أنهم اختاروا الحرب.

فى تلك الساعات يوجد تآلف غريب يتحرك تجاه تفعيل المعاهدات، مثل معاهدة الأطلسى، التى نشأت لهدف ما ويتم الآن استخدامها لهدف آخر، ومن خلال إضافة بلاد مثل الصين وروسيا وربما الهند، كل منها تدفعه مصالحه الخاصة التى هى مصالح قومية إلى حد كبير. فيما يتعلق بالصين، فإن الحرب العالمية ضد الإرهاب هى فرصة جيدة لتحاول أن تحل مشاكلها القديمة مع الشعوب الإسلامية، والتى تقع فى حدود أراضيها. بالنسبة لروسيا/بوتين فالحرب مناسبة لحل مشكلته مع الشيشان وإسكات كل الاتهامات الخاصة بالانتهاكات المرعبة لحقوق الإنسان لقوات موسكو هناك، والشيء نفسه ينطبق على الهند، وصراعها الطويل للسيطرة على كشمير. المشكلة أنه سيكون فى غاية الصعوبة إظهار هذه الحرب فقط على أنها حملة ضد الإرهاب وليست حرباً ضد الإسلام.

الشيء الغريب أن التحالف الذى يتم تكوينه اليوم يشبه كثيراً ذلك الذى وجد الإسلام نفسه منذ قرون يحاربه على جبهتين: فى الغرب القوات الصليبية، وفى الشرق قبائل الرحالة فى آسيا الوسطى والمغول.

فى تلك المناسبة قاوم المسلمون بضراوة، وانتهى بهم الأمر بأن حولوا جزءا كبيرا من أعدائهم إلى الإسلام.

إن هذا رهان من المؤكد أن بن لادن وأتباعه يقومون به الآن. ربما يعتمدون - بدورهم - على هجوم من العالم الغربى ليجمعوا مقاومة إسلامية حاشدة وتحويل ما قامت به أقلية اليوم، ولكنها تحمل إصراراً قويا، إلى ظاهرة أكثر انتشاراً.

إن الإسلام يصلح جيداً، نظراً لبساطته، ونظراً للخاصية العسكرية التلقائية، لأن يصبح أيديولوجية للمتضررين، وتلك الشعوب الفقيرة التى تحتشد، هى شعوب يائسة وتعانى من التمييز فى العالم الثالث المتأثر بالطابع الغربى.

الأهم من القضاء على الإرهابيين ومن ساندهم (ربما نندهش عند معرفة كم من الشخصيات، بعيدة تماماً عن الشبهات، متورطون فى هذا)، سيكون التصرف الأكثر حكمة، هو القضاء على الأسباب التى تدفع العديد من الناس، وخاصة الشباب، إلى الانضمام إلى صفوف الجهاد، ويجعل واجب قتل أنفسهم وآخرين رسالة سامية.

إذا كنا نؤمن بالفعل بقدسية الحياة، لابد لنا أن نقبل قدسية كل أنواع الحياة: هل سنكون على استعداد لأن نقبل المئات، بل الآلاف من القتلى، وأيضاً أولئك المدنيين غير المسلحين، والذين سيقعون ضحايا انتقامنا هذا؟ هل سترتاح ضمائرنا أن هؤلاء الموتى سيتم تقديمهم – فى لغة العلاقات العامة للجيش الأمريكى – وكأنهم ضحايا "نيران صديقة"؟

إن نوعية المستقبل الذى ينتظرنا يعتمد على ما سنفعله، وعلى رد فعلنا أمام هذا الاستنفار البشع، وكيف سنرى تاريخنا الحالى بمقياس تاريخ الإنسانية. إن المشكلة هى أنه ما دمنا نفكر بأننا نمتلك سلطة التحكم، وما دمنا نتحدث عن حضارتنا متجاهلين الحضارات الأخرى، فنحن لسنا على الطريق الصحيح.

إن الإسلام ديانة كبيرة، لها تراثها القاسى (مثل تاريخ ديانات أخرى) بما حمل من مآس وفظائع، ولكن من العبث التفكير بأن أى راعى بقر، حتى وإن كان مسلحاً بكل مسدسات العالم، يمكنه أن يمحو هذا الإيمان من على وجه الأرض. سيكون من الأفضل مساعدة المسلمين أنفسهم على عزل الأجنحة الأصولية، وعلى إعادة اكتشاف الجانب الروحى من إيمانهم بدلاً من إثارة عدائهم.

إن الإسلام الآن موجود فى كل مكان، فى أمريكا نفسها يوجد الآن مسلمون يبلغ عددهم عدد اليهود (ستة ملايين)، وليست مصادفة أن يكون معظمهم أفارقة أمريكيين، وجذبهم واقع أن الإسلام كان منذ البداية ضد مبدأ التمييز العرقى، يوجد على الأراضى الأمريكية ١٤٠٠ مسجد، أحدها فى القاعدة البحرية لنورفولك.

لا يجب علينا الآن الانجراف وراء رؤى جزئية للواقع، يجب ألا نصبح رهائن للمجاز الذى يلجأ إليه اليوم من هم بلا أفكار ليملأوا صمت الصدمة.

إن الخطر هو أنه بسبب تلك المآسى، والانحرافات البشعة، ننتهى نحن أنفسنا كآدميين إلى أن ننجرف وننحرف بعيداً عن مهمتنا على الأرض؛ والتى وثقها الأمريكيون فى دستورهم: البحث عن السعادة. حسنًا: لنسعى إذن جميعًا لنحصل على هذه السعادة، ربما بعد أن نعيد تعريفها فى مصطلحات، ليست فقط مادية، وبعد أن نكون قد اقتنعنا أننا نحن – الغربيين – لا يمكننا أن نبحث عن "سعادتنا" على حساب سعادة الآخرين، وأن السعادة، مثلها مثل الحرية، لا يمكن أن تتجزأ.

إن مذبحة نيويورك منحت لنا الفرصة أن نعيد التفكير فى كل شىء، ووضعتنا أمام اختيارات جديدة. الاختيار الأكثر إلحاحًا هو إضافة أو إزالة الأصولية الإسلامية، وأسبابها، وتحويل رقصات الفلسطينيين من احتفالية قاسية بألم الغير إلى احتفالية حقيقية بسبب استعادتهم لكرامتهم. إذا لم يحدث هذا فإن أى قنبلة أو صاروخ يسقط على شعوب العالم "الآخر"، ستساهم فقط بأن تزرع أسنانًا أخرى للتنين، وأن تمنح الحياة لشباب جدد مستعدين؛ لأن يصرخوا "الله أكبر"، وهم يخطفون طائرة أخرى مملوءة بالأبرياء؛ لتصطدم بناطحة سحاب غداً، أو بأن يلقوا بقنبلة بكتيرية أو بقنبلة نووية صغيرة الحجم على أحد أسواقنا الكبرى.

فقط إذا استطعنا رؤية الكون بصفته وحدة واحدة، وأن الذى يؤثر فى أى جزء فيه يؤثر فى الكل، وأن جماله الرائع يكمن فى تنوعه، عندئذ فقط يمكننا أن نفهم مَنْ نحن وأين نحن.

إذا لم نفعل ذلك سنكون فقط مثل ضفدعة المثل الصينى، التى تنظر من قاع البئر إلى أعلى وتعتقد أنها ترى السماء كلها. منذ ألفين وخمسمائة عام قام أحد الهنود، والذى أطلقوا عليه فيما بعد لقب "المستنير"(*)، بشرح شىء واضح: إن الكراهية لا يمكن هزيمتها إلا بالحب. قليل هم من استمعوا إليه وقتها، ولكن ربما جاءت اللحظة لنفعل هذا.

(*) بوذا. (المراجع)

خطاب من فلورنسا

السلطان والقديس فرنسيس الأسيزى

فلورنسا، ٤ أكتوبر ٢٠٠١م

أوريانا

من نافذة منزل قريب من المنزل الذى فيه وُلدت، أنظر إلى أطراف أشجار السرو الحادة والأنيقة المرتفعة نحو السماء، وأفكر فيكِ وأنت تنظرين من نافذتك فى نيويورك على مشهد ناطحات السحاب، الذى ينقصه البرجان التوأم، وأتذكر ظهيرة أحد الأيام منذ عدة أعوام عندما قمنا معًا بنزهة طويلة فى الطرقات الصغيرة لتلالنا الفضية بما فيها من حقول زيتون. وكنت أنا أتطلع، وأنا صغير، إلى المهنة التى كنت فيها أنت كبيرة بالفعل، وكنت تقترحين أن نتبادل "خطابات من عالمين مختلفين"، أنا من الصين، فى الفترة التالية لحكم ماو، وحيث كنت ذاهبًا لأعيش، وأنت من أمريكا. وكان خطئى أننا لم نفعل ذلك. وباسم عرضك السخى ذلك عندئذ، وبالتأكيد ليس لأدخلك الآن فى نوع من المراسلات نرغب أنا وأنت فى تجنبه، أسمح لنفسى بأن أكتب لك خطابى هذا.

والحقيقة لم يكن لدى قط الانطباع – الذى أشعر به الآن – بأنه على الرغم من أننا نعيش على الكوكب نفسه، فإننى أشعر بأننى أنتمى لعالم مختلف تمامًا عن عالمك.

إننى أكتب لك أيضًا، بل أنشر ما أكتبه حتى لا يشعر القراء – أمثالى – الذين دُهشوا من سبابك تمامًا كما حدث للجميع بسقوط البرجين، فهناك عندما مات آلاف الأشخاص مات معهم شعورنا بالأمان، وفى كلماتك يبدو لى أن أفضل ما فى رأس الإنسان، أى العقل، قد مات.

بل مات أيضًا ما فى قلب الإنسان: الرحمة.

لقد صدمنى بشدة إطلاقك العنان لمشاعرك، بل جرحنى، وجعلنى أفكر فى كارل كراوس(*) الذى كتب وهو يشعر باليأس من أن هناك أناسا لم يصمتوا أمام ذلك الرعب الذى لا يصدقه عقل للحرب العالمية الأولى، بل على العكس، أطلقوا ألسنتهم فى نوع من الثرثرة العبثية والمريكة، قال: "من لديه شيء ليقوله ليتقدم خطوة إلى الأمام ويلتزم الصمت". والتزام الصمت لدى كراوس، كان معناه التفكير والتأمل قبل التعبير. وقد استخدم هو هذا الصمت الواعى ليكتب "الأيام الأخيرة للبشرية" ذلك العمل العظيم الذى يبدو معاصراً حتى الآن بشكل يثير القلق.

من حقك بالطبع التفكير بطريقتك، وكتابة ما تفكرين فيه، ولكن المشكلة تكمن فى أنه بسبب شهرتك سيصل درسك العبقرى فى عدم التسامح حتى للمدارس، ويؤثر فى العديد من الشباب، وهذا ما يقلقنى.

إن اللحظة الحالية "هى لحظة غاية فى الأهمية، إن رعبا يفوق الوصف قد بدأ لتوه، ولكن ما زال فى الإمكان إيقافه، ذلك إذا صنعنا من هذه اللحظة الفرصة العظيمة لإعادة التفكير. إنها أيضاً لحظة المسئولية الضخمة؛ لأن بعض الكلمات المطبوعة التى تطلقها الألسنة "المنطلقة" لا ينتج عنها سوى إيقاظ الحواس "المتدنية" لدينا، وأن توقظ وحش الكراهية الذى يقبع بداخل كل واحد منا. وأن تثير عمى الانفعالات التى تطلق العنان للتفكير فى كل تصرف سيئ، وتسمح لنا – ولأعدائنا – بأن نقتل أنفسنا والآخرين. كتب غاندى – تلك الروح العظيمة – عام ١٩٢٥م "إن التغلب على الانفعالات يبدو لى أكثر صعوبة بكثير من التغلب على العالم كله بقوة السلاح، ولا يزال أمامى طريق طويل لأصل إلى هذا". وأضاف: "لن يكون هناك أى خلاص للإنسان ما لم يضع نفسه فى آخر مكان بين كل مخلوقات الأرض".

وأنتِ يا أوريانا، فبوضعك لنفسك فى الصفوف الأولى لتلك الحرب الصليبية ضد كل من ليس مثلك، أو من لا تشعرين نحوه بالاستلطاف، هل تعتقدين أنك تقدمين لنا

(*) كارل كراوس (١٨٧٤ ـ ١٩٣٦) كاتب مسرحى وناقد وصحافى نمساوى، من أبرز كتّاب الهجاء فى اللغة الألمانية. أعلن فى عام ١٨٩٩م اعتناقه الكاثوليكية بدلا من اليهودية، ثم تخلى أيضا عن الكاثوليكية، وتعرف عام ١٩١٣م على البارونة سيدونى نادهرنى فون بوروتين، واستمرت علاقتهما المتقلبة طوال حياته، ونتج عنها مجموعة رسائل نشرت بعد وفاته. (المراجع)

طريق النجاة؟ إن النجاة ليست فى غضبك الشديد، ولا فى الحملة العسكرية التى تطلقين عليها اسم "الحرية الأبدية" حتى تحظى القبول. أم أنك تعتقدين حقًا أن العنف هو أفضل طريقة لهزيمة العنف؟

منذ أن أصبح العالم ذلك العالم الذى نعرفه، لم توجد حتى الآن تلك الحرب التى وضعت حدا لكل الحروب، ولن تكون حربك هى الحاسمة بالتأكيد.

إن ما يحدث لنا حاليًا شىء جديد، والعالم كله يتغير من حولنا، فلنغير نحن إذن طريقتنا فى التفكير، طريقتنا فى الحياة، إنها فرصة عظيمة، ولا يجب أن نفقدها. لنضع إذن كل شىء موضع المناقشة، لنتخيل لأنفسنا مستقبلا مختلفا عن ذلك الذى خدعنا أنفسنا بوجوده قبل الحادى عشر من سبتمبر، والأهم ألا نستسلم لحتمية أى شىء، وألا نستسلم لحتمية الحرب بوصفها أداة لتحقيق العدل أو للانتقام.

إن الحروب غاية فى البشاعة، والتقدم الحديث لتقنيات التدمير والموت يزيد من بشاعتها. إذن لنفكر فى الأمر جيداً، وإذا كان لدينا استعداد لخوض المعركة الحالية بكل سلاح لدينا، بما فى ذلك أيضًا السلاح النووى - كما يقترح وزير الدفاع الأمريكى - علينا إذن أن نتوقع أن أعداءنا أيضًا، أينما كانوا، سيكونون أكثر استعداداً من ذى قبل ليفعلوا الشىء نفسه، وبأن يتصرفوا بلا قواعد، وبدون احترام أى مبدأ.

وإذا أجبنا نحن على عنف هجومهم على البرجين التوأم بعنف أبشع، بداية فى أفغانستان ثم فى العراق، ثم لا أحد يعرف أين سيجلب عنفنا بالضرورة رد فعل أكثر عنفًا من جهتهم، ثم يليه رد أكثر عنفًا من جهتنا، وهكذا. لماذا إذن لا نتوقف قبل كل ذلك؟ لقد فقدنا القدرة على تمييز من نكون، ولم نعد ندرك كيف أن عالمنا الذى نعيش فيه الآن غاية فى الهشاشة، بل متصل كله، ونخدع أنفسنا إذا قلنا إنه يمكننا استخدام جرعة ربما "ذكية" من العنف لنضع حداً لعنف الآخرين الوحشى. لنغير إذن هذا الوهم، لنحاول بداية أن نطلب من الذين معنا ويمتلكون الأسلحة النووية والكيميائية والبكتيرية - الولايات المتحدة على رأسهم - بأن يلتزموا أمام كل البشرية بألا يستخدموها أبداً فى الهجوم، وبأن يتذكروا الخطر الذى يشكله مجرد امتلاكها.

ستكون هذه الخطوة الأولى نحو اتجاه جديد، ولن يمنح ذلك لمن سيفعله فائدة أدبية فقط – وهو شيء مهم جدا للمستقبل – ولكنه يمكن أن يبطل مفعول الرعب الرهيب الذى بدأ كرد فعل لسلسلة الانتقام.

أقرأ فى هذه الأيام كتابا رائعا، نُشر منذ عامين فى ألمانيا (وللأسف لم يُترجم حتى الآن إلى اللغة الإيطالية، كتبه صديق قديم، عنوان الكتاب: "فن ألا نكون محكومين، الأخلاق السياسية من سقراط إلى موزار" والمؤلف هو "إيكهارت كريبندورف" الذى عمل أستاذًا لعدة أعوام فى جامعة بولونيا قبل أن يعود إلى جامعة برلين.

إن البحث الرائع لكريبندورف يقول إن السياسة، فى أكثر التعبيرات نبلا عنها، يجب أن تولد من تجاوز فكرة الانتقام، وإن الثقافة الغربية لها جذورها الأكثر عمقًا فى بعض الأساطير، مثل أسطورة قابيل وهابيل وأسطورة المردة[1]، التى كان تفسيرها منذ البدء هو أنها تذكرة للإنسان بضرورة كسر العادة السيئة لدائرة الانتقام، ليستطيع أن يبدأ طريقه نحو الحضارة.

قتل قابيل أخاه، ولكن الله منع الناس من الانتقام لهابيل، وبعد أن وضع علامة على قابيل – علامة فيها حماية له أيضًا – حكم عليه بالنفى؛ حيث أسس أول مدينة، فالانتقام ليس دور الإنسان، بل الله وحده المنتقم.

يرى "كريبندورف" أن المسرح بداية من أسخيليوس وصولاً إلى شكسبير كان له دور غاية فى الأهمية فى تكوين الإنسان الغربى؛ لأنه بوضعه كل شخصيات صراع ما على المسرح، ومن خلال تقديم وجهة النظر الخاصة بكل منهم؛ أفكارهم والاختيارات الممكنة التى أمامهم، قد نجح فى أن يدفع الناس للتفكير فى معنى الانفعالات، وانعدام الجدوى من العنف الذى لا يحقق أهدافه أبدا.

---

(١) كان "أورانوس" يغار من أبنائه ويفرق فى معاملته لهم فألقى بالمسوخ فى جوف الأرض، بينما ترك الأبناء الآخرين أحرارًا، وحين ضاقت الأم بأفعال زوجها حرضت أبناءها عليه، فاستجاب لها "كرونوس" الذى صمم على الانتقام من أبيه فكمن له ذات يوم وطعنه طعنة قاتلة فسالت دماؤه على الأرض ونفذت إلى جوفها فأنجبت الجيل الرابع من الذرية وهم المردة (Erinyes) والعمالقة Giants والحوريات Nymphs .

ولكن للأسف اليوم، وعلى مسرح العالم، عالمنا نحن - الغربيين - نحن فقط الأبطال، ونحن فقط المتفرجون، فمن خلال تليفزيوناتنا وصحفنا لا نسمع سوى الأسباب التى لدينا نحن، ولا نشعر إلا بآلامنا نحن فقط، فلا أحد يقدم قط عالم الآخرين.

فأنتِ يا أوريانا لا يهمك الكاميكاز، أما أنا فأهتم بهم كثيرًا. لقد قضيت أيامًا فى سريلانكا مع بعض شباب نمور التاميل، أولئك الشباب الذين نذروا أنفسهم للانتحار، ويهمنى أيضًا شباب حماس الفلسطينى، الذين يُفجرون أنفسهم فى مطاعم البيتزا الإسرائيلية.

ربما كنت ستشعرين ببعض التعاطف معهم أنت أيضًا إذا كنت قد زرتِ "شران" فى اليابان على جزيرة كيوشو، ذلك المركز الذى تدرب فيه الكاميكاز الأوائل، وقرأت الكلمات - الشاعرية أحيانًا والحزينة - التى كتبوها خفية قبل أن يذهبوا بكل إباء ليموتوا فى سبيل علم بلادهم وفى سبيل الإمبراطور.

إن الكاميكاز يثيرون اهتمامى؛ لأننى أريد أن أفهم ما الذى يجعلهم على استعداد للقيام بهذا التصرف - غير الطبيعى - أى الانتحار، وما الشىء الذى يمكن أن يثنيهم عن هذا التصرف.

إن منا من حالفه الحظ وأنجب أبناءً يشعر بقلق شديد اليوم من أن يراهم يحترقون فى لهيب ذلك النوع الجديد والمتفشى من العنف، والذى قد تكون المقبرة الجماعية للبرجين التوأم مجرد أحد أحداثه.

إن الأمر لا يتعلق بتبرير أو بإدانة، ولكن مجرد محاولة للفهم. محاولة للفهم لأننى مقتنع أن مشكلة الإرهاب لن تُحل بأن نقتل الإرهابيين، ولكن بأن نقضى على الأسباب التى تحولهم إلى إرهابيين. لا يوجد شىء فى التاريخ الإنسانى يسهل شرحه، ونادرًا ما توجد علامة مباشرة ومحددة بين أمر وآخر. فكل حدث، حتى فى حياتنا الشخصية، هو نتاج آلاف الأسباب، التى تنتج عنها- بالاشتراك مع هذا الحدث - آلاف التأثيرات الأخرى، والتى تصبح بدورها أسبابا لآلاف التأثيرات الأخرى.

إن الهجوم على البرجين التوأم هو أحد تلك الأحداث، فهو نتاج أحداث عديدة ومعقدة، وبالتأكيد هو ليس مجرد نتاج "حرب دينية" يشنها المتطرفون الإسلاميون لغزو أنفسنا، وليست حرباً صليبية معكوسة - كما تسمينها أنت يا أوريانا، وليست أيضاً "هجوما على الحرية والديمقراطية الغربية"، كما يجيء فى الصياغة المبسطة التى يستخدمها حالياً رجال السياسة.

شاليمرز جونسون، أكاديمى مسن من جامعة بركيلى (Berkely)، شخص من المؤكد لديه نزعة ضد - أمريكا أو أنه يميل إلى اليسار، يعطى تفسيراً مختلفاً تماماً، فقد كتب فى عدد "ذا نيشن" الذى صدر فى أكتوبر يقول عنهم: "إن الانتحاريين القتلة، مرتكبى أحداث ١١ سبتمبر لم يهاجموا أمريكا، ولكنهم هاجموا السياسة الخارجية الأمريكية". بالنسبة إليه، وهو مؤلف العديد من الكتب، كان كتابه الأخير "الضربة المضادة"، والذى صدر العام الماضى به ما يشبه التنبؤات. فالأمر يتعلق بالفعل بما يشبه الضربة المضادة، إلى واقع أنه على الرغم من انتهاء الحرب الباردة، وتمزق الاتحاد السوفييتى؛ فإن الولايات المتحدة لم تمس شبكتها الإمبراطورية المكونة من ٨٠٠ قاعدة عسكرية فى العالم. وبنوع من التحليل الذى كان يمكن أن يبدو فى زمن الحرب الباردة، وكأنه تضليل معلوماتى من المخابرات السوفييتية، يسرد شاليرز جونسون قائمة بكل الخدع والمؤامرات، بالانقلابات والاضطهادات، الاغتيالات والتدخلات، لصالح أنظمة ديكتاتورية وفاسدة، تورطت فيها الولايات المتحدة سواء علانية أو سرية فى أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا والشرق الأوسط منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم.

إن "الضربة المضادة" لهجوم البرجين التوأم والبنتاجون لها علاقة بسلسلة أعمال من هذا النوع، أحداث تبدأ منذ انقلاب الدولة الذى أوحت به المخابرات الأمريكية ضد مُصدق عام ١٩٥٣م، وما تلاه من جلوس الشاه على عرش إيران انتهاءً بحرب الخليج وما نتج عنها من وجود دائم للقوات الأمريكية فى شبه الجزيرة العربية، وخاصة فى السعودية، حيث الأماكن المقدسة للإسلام.

يرى جونسون أن السياسة الأمريكية هى "التى أقنعت كل هؤلاء الأشخاص فى العالم الإسلامى بأن الولايات المتحدة عدو لا ريب فيه". وهكذا يمكن تفسير تلك النزعة المعادية لأمريكا العنيفة المنتشرة فى العالم الإسلامى، والتى تُدهش كثيراً الولايات المتحدة وحلفاءها.

سواء كان تحليل شالميرز جونسون دقيقًا أم لا، فمن الواضح أن وراء كل مشاكل الأمريكيين الحالية، وبالتالى مشاكلنا نحن أيضًا أنه يوجد فى الشرق الأوسط - بخلاف المشكلة الإسرائيلية - الفلسطينية - ذلك القلق الاستحواذى الغربى بأن يظل احتياطى البترول فى المنطقة بين يدى أنظمة "صديقة".

لماذا إذن لا نحاول أن نعيد دراسة اعتمادنا الاقتصادى على البترول؟ لماذا لا ندرس بالفعل كما فعلنا منذ عشرين عامًا كل مصادر الطاقة الأخرى البديلة؟ ربما تجنبنا بهذه الطريقة التورط فى الخليج مع أنظمة ليست أقل قمعًا ومقتًا من نظام طالبان، وربما تجنبنا أيضًا تلك "الضربات المضادة" المدمرة، التى ستطلقها علينا معارضة تلك الأنظمة، وبالتالى سنتمكن أيضًا من المساهمة فى الحفاظ على التوازن البيئى على كوكب الأرض.

ربما استطعنا أيضًا أن ننقذ بلاد الآلاسكا التى فُتحت منذ شهرين أمام المنقبين، وبالمصادفة بواسطة الرئيس بوش، والذين نعرف جميعنا أنهم يبحثون هناك عن البترول.

وبمناسبة البترول يا أوريانا فأنا أيضًا واثق من أنك أنت أيضًا قد لاحظت - رغم كل ما كُتب وقيل عن أفغانستان هذه الأيام – كيف أن القلة القليلة فقط هى التى تحاول لفت الأنظار للأهمية الكبرى لهذا البلد، إذ هو الطريق الإجبارى لأى دولة تريد أن تنقل المصادر الهائلة من القطران أو البترول من وسط آسيا (والمقصود كل الجمهوريات السوفييتية السابقة، والتى تحولت جميعها - فجأة - لحلفاء الولايات المتحدة) تجاه باكستان والهند، ومن هناك إلى بلاد جنوب شرق آسيا، وذلك دون الحاجة إلى العبور من إيران.

ولم يتذكر أحد فى هذه الأيام أنه فى عام ١٩٩٧م، استقبلت واشنطن (وفى وزارة الخارجية نفسها) وفدين من الطالبان "الإرهابيين" للتباحث فى هذا الأمر، وأن شركة بترول كبيرة أمريكية (Unocal) وباستشارة لا يُستهان بها من "هنرى كيسنجر" التزمت مع تركمنستان ببناء أنابيب بترول تمر عبر أفغانستان. بل وراء تلك المناقشات، حول ضرورة حماية الحرية والديمقراطية، ربما يخفى الهجوم الحتمى على أفغانستان حسابات أخرى أقل وضوحًا؛ ولكنها بالتأكيد ليست أقل أهمية وحسمًا للموقف.

ولهذا بدأ ينتاب بعض المثقفين في أمريكا الشعور نفسه بالقلق بسبب ذلك الخلط بين مصالح الصناعة البترولية والمصالح الحربية، تلك التركيبة السائدة حاليًا والمتمثلة في المجموعة القائمة على السلطة في واشنطن، لأنها تحدد الاختيارات السياسية الأمريكية في العالم في اتجاه واحد، ولأنها أيضًا تقيد هوامش تلك الحرية الرائعة التي كانت تجعل منها حالة فريدة من نوعها بسبب حالة الطوارئ ضد الإرهاب، داخل أمريكا نفسها.

وقد تسبب في تصاعد هذا القلق لدى المثقفين واقعة تنحية أحد صحافي التليفزيون في أمريكا من على منصة البيت الأبيض؛ لأنه تساءل إذا كانت الصفة "جبناء" والتي استخدمها بوش يمكن أن تكون مناسبة ليطلقها على الإرهابيين الانتحاريين، تمامًا كما حدث في الرقابة على بعض البرامج واستبعاد بعض الصحف، والتي تمت إدانتها بأنها لا تتبع الخط المستقيم.

إن تقسيم العالم بطريقة تبدو لي طالبانية إلى "من معنا ومن علينا"، تخلق بوضوح كل تلك الافتراضات التي تصنع ذلك المناخ المشابه لمطاردة الساحرات، والذي عانت منه أمريكا في الخمسينيات مع وجود النزعة المكارثية، حيث تم اتهام العديد من المثقفين والعاملين في الدولة والأكاديميين ظلمًا بالشيوعية أو بالتعاطف معها، واضطهدوا لذلك، وحوكموا، والكثيرون منهم أجبروا على ترك وظائفهم.

إن هجومك يا أوريانا حتى بالبصاق ضد "الحشرات" أو مثقفي "الشك" يعد هجومًا مشابهًا. إن الشك هو الوظيفة الأساسية للفكر، والشك هو أساس ثقافتنا. إن الرغبة في نزع الشك من عقولنا مثل الرغبة في نزع الهواء من رئتينا. أنا لا أزعم أبدًا بأن لدي إجابات واضحة ودقيقة لمشكلات العالم (ولذلك لم أحاول الدخول في مجال العمل السياسي)، ولكنني أعتقد في فائدة الشك في إجابات الآخرين، وأن نترك المساحة لأنفسنا لطرح التساؤلات الأمنية، ففي أوقات الحرب، لا يمكن أن نعد التحدث عن السلام جريمة.

للأسف لدينا هنا أيضًا، وخاصة في العالم "الرسمي" للسياسة، وفي المؤسسات، يوجد سباق محموم نحو الوسطية، وكأن أمريكا تخيفنا بالفعل. وهكذا حدث أن

استمعت إلى أحد الشيوعيين السابقين يصرح فى التليفزيون - بحثًا عن منصب ما فى حزبه - أن الضابط "رايان" رمز مهم لأمريكا، أمريكا التى أنقذتنا مرتين. ولكن ألم يكن هو أحد الذين ساروا فى مسيرات ضد الحرب الأمريكية فى فيتنام؟

بالنسبة للسياسيين أستطيع أن أتفهم الوضع فهى لحظة غاية فى الصعوبة.

أستطيع أن أتفهم وضعهم، وأن أفهم أيضًا مأساة شخص مثل رئيس حكومتنا الذى اتخذ طريق السلطة بصفته أقصر الطرق لحل الصراع الصغير حول الاهتمامات الأرضية، ويجد نفسه الآن فى وسط صراع هائل للمصالح المقدسة، حرب حضارات تتصارع باسم الله، فأنا لا أحسد رجال السياسة.

أوريانا، إننا محظوظون، لدينا القليل لنقرره، ونظرًا لأننا لسنا فى وسط تيارات النهر؛ فلدينا ميزة أننا نستطيع أن نقف أمام النهر نراقب التيارات المائية، ولكن هذا يفرض علينا أيضًا مسئوليات عظيمة مثل تلك المسئولية العسيرة لأن نبحث عن الحقيقة وأن نكرس أنفسنا قبل كل شىء "لخلق مجالات للتفاهم، بدلاً من مجالات الحرب" كما كتب "إدوار سعيد"، أستاذ فلسطينى الأصل يعمل حاليًا فى جامعة كولومبيا(*)، وذلك فى أحد مقالاته حول دور المثقفين والذى نُشر قبل الهجوم على أمريكا بأسبوع واحد.

إن مهنتنا تتطلب أيضًا تبسيط ما هو معقد، ولكن يا أوريانا لا يمكننا المبالغة بأن نقدم تعريفات وكأنها خلاصة الازدواجية والنزعة الإرهابية، ولأن نشير إلى جماعات المسلمين المهاجرين لدينا وكأنها هى محرك الإرهاب.

إن طريقتك لتقديم الحجج سيتم حاليًا استخدامها فى المدارس على أساس أنها الأفضل، وستصبح الكتاب المفضل، ولكن هل تعتقدين أن أبناء إيطاليا فى المستقبل والذين سوف يشبون على أساس نزعتك تلك المبسطة نحو عدم التسامح سيكونون أفضل؟! أليس من الأفضل أن يتعلموا فى دروس الدين أيضًا ما هو الإسلام؟! وأن يقرؤوا فى دروس الأدب ابن الرومى، أو عمر الخيام الذى تحتقرينه أنت؟! أليس من

(*) أستاذ الأدب المقارن بجامعة كولومبيا، ولد عام ١٩٣٥م بالقدس، وتوفى متأثرا بمرض السرطان عام ٢٠٠٣م بنيويورك. (المراجع)

الأفضل أن يكون هناك أولئك من يدرسون اللغة العربية بجانب الكثيرين الموجودين حاليًا، والذين يدرسون الإنجليزية، وربما اليابانية أيضًا؟ هل تعلمين أن فى وزارة خارجية بلدنا هذه، والتى تطل على البحر المتوسط وعلى العالم الإسلامى لا يوجد سوى اثنين من الموظفين يتحدثان اللغة العربية؟! وأحدهما موجود حاليًا ـ كما يحدث لدينا عادة ـ فى أدليد فى أستراليا ويعمل هناك قنصلا.

تراودنى الآن عبارة لتويبى: "إن أعمال الفنانين والأدباء تدوم أكثر من أعمال الجنود والموظفين والتجار. إن الشعراء والفلاسفة لهم أهمية أكبر بكثير من المؤرخين، ولكن القديسين والأنبياء قيمتهم أعظم من كل هؤلاء مجتمعين معًا".

أين هم القديسون والأنبياء؟ حقا، نحن نحتاج على الأقل إلى واحد منهم فقط! ربما يلزمنا شخص مثل القديس فرنسيس[1] كان زمنه هو أيضًا زمن الحروب الصليبية، ولكن كان اهتمامه موجهًا نحو "الآخرين" ولأجل هؤلاء الذين يحارب ضدهم الصليبيون فعل المستحيل ليذهب للقائهم. جرب ذلك، المرة الأولى غرقت السفينة التى كان يبحر على متنها، وأُنقذ منها هو بأعجوبة، وحاول مرة أخرى، ولكن أصابه المرض قبل أن يصل وعاد أدراجه. وأخيرًا وفى أثناء الحملة الصليبية الخامسة، وفى أثناء احتلال دمياط فى مصر، وهو يشعر بالمرارة من سلوك الصليبيين "رأيت الشر والخطيئة" ومضطربًا لرؤية القتلى فى ساحة القتال، عبر القديس "فرانسيس" الحدود. تم أسره وقيدوه وذهبوا به للسلطان. ويا للأسف أنه فى ذلك الوقت ـ عام ١٢١٩م ـ لم تكن هناك شبكة السى إن إن. لو كانت موجودة لكان من الأهمية بمكان أن نعيد اليوم مشاهدة تسجيل لهذا اللقاء. من المؤكد إنه كان لقاء غاية فى الخصوصية لأنه بعد مناقشة ربما استمرت ليلة كاملة، أطلق السلطان سراح القديس "فرانسيس"، وتركه ليذهب، دون أن يمسه، إلى معسكر الصليبيين.

يُمتعنى كثيرًا التفكير فى أن كلاً منهما تحدث مع الآخر عن معتقداته، فتحدث معه القديس فرانسيس عن المسيح، وقرأ له السلطان أجزاء من القرآن، وفى النهاية

(١) سان فرانشيسكو دا أسيزى، أو القديس فرانسيس الأسيزى، المولود فى مدينة أسيزى فى ٢٦ سبتمبر١١٨١م وتوفى بها فى ٣ أكتوبر ١٢٢٦م، لقب قديسا فى الكنيسة الكاثوليكية، وله طائفة تحمل اسمه تعرف باسم الفرانسيسكان.

وجدا أنهما متفقان حول الرسالة التى كان راهب أسيزى الزاهد ينشرها فى كل مكان "لتحب جارك كنفسك". ويمتعنى أيضًا أن أتخيل، أنه نظرًا لأن الراهب كان يعرف كيف يضحك كمعرفته للوعظ، أنه لم يكن بينهما أى حوار عنيف، وأن كلا منهما ترك الآخر حسن المزاج، وهو يعلم أن لا أحد منهما يستطيع أن يوقف عجلة التاريخ.

ولكن اليوم إذا لم نحاول إيقافها يعنى أننا سنضع نهاية لها. هل تتذكرين يا أوريانا الأب بالدوتشى الذى كان يعظ فى فلورنسا عندما كنا أطفالاً؟ هل تتذكرينه وهو يشير إلى بشاعة الهولوكست النووى طرح سؤالاً جميلاً: "هل جعلت متلازمة نهاية الكون والمراوحة بين أن "تكون أو لا نكون" الإنسان الحالى أكثر إنسانية؟" بالنظر حولى يبدو لى أن الإجابة يجب أن تكون "لا"، ولكن لا يمكننا أن نتخلى عن الأمل.

كان ألبرت أينشتاين يسأل عام ١٩٣٢م، فى خطاب أرسله لسيجموند فرويد: "هل يمكنك أن تقول لى ماذا يدفع الإنسان للحرب؟ هل يمكن أن يقود التطور النفسى الإنسان لأن يصبح أكثر قدرة على مقاومة عقد الكراهية والدمار؟"

استغرق فرويد شهرين ليتمكن من الرد عليه، وكان استنتاجه أنه ما زال هناك أمل، وأن عاملين سيؤثران فى وضع حد لهذه الحروب فى المستقبل القريب وهما: سلوك أكثر حضارة والخوف المبرر من نتائج حروب المستقبل. وأنقذ الموت فرويد فى الوقت المناسب من فظائع الحرب العالمية الثانية، ولكنه لم ينقذ أينشتاين الذى أصبح بدوره أكثر اقتناعًا من ذى قبل بالنزعة السلمية، وعام ١٩٥٥م، قبل أن يموت بقليل، ومن منزله الصغير فى برينستون فى أمريكا وجه للإنسانية نداء أخيرا لتحافظ على بقائها: "تذكروا أنكم بشر وانسوا أى شيء آخر".

لكى ندافع عن أنفسنا يا أوريانا لا نحتاج لأن نهين أحدا (أتذكر بصاقك وركلاتك)، لكى نحمى أنفسنا، لا نحتاج لأن نقتل الآخرين، وأيضًا فى هذه الحالة يمكن أن تكون هناك بعض الاستثناءات. لطالما أعجبتنى فى الجاتاكا (Jataka)، قصص الحيوات السابقة لبوذا، والتى يضطر فيها، وهو من تقوم دعوته على اللاعنف، أن يقتل شخصًا فى أحد تجسيداته السابقة، يحدث هذا فى أثناء إبحاره فى سفينة بها أكثر من خمسمائة شخص، وبقدرته على التنبؤ "يرى" أحد المسافرين على وشك أن يقتل

الجميع ويسرقهم، ويستطيع هو منع ذلك بأن يلقيه فى البحر؛ فيغرق المتشرد وينجو الآخرون جميعًا.

أن نقف ضد عقوبة الإعدام لا يعنى أننا نرفض العقوبة رفضًا مطلقًا، أو أننا بهذا نطالب بحرية المجرمين، ولكن لنعاقب على أساس العدل. يجب احترام بعض الأنظمة والتى هى ثمار التحضر، ويجب الوصول إلى إقناع العقل، وتقديم الكثير من الأدلة.

إن الفوضويين النازيين قيدوا أمام محكمة نورنبرج، واليابانيون الذين تسببوا فى كل العمليات الوحشية التى ارتكبت فى آسيا مثلوا للمحاكمة أمام محكمة طوكيو قبل أن يتم إعدام أى منهم، وكانت الأدلة ضد كل منهم ساحقة. ولكن ماذا عن الأدلة ضد أسامة بن لادن؟!

"لدينا كل الأدلة ضد "وارن أندرسن"، رئيس اتحاد الكربيد(*)، وننتظر أن تسلموه لنا". كتبت "أورنداهاتى روى" ذلك فى إحدى جرائد الهند موجهة كلامها إلى أمريكا، وكما هو واضح بغرض التحريض، وهى مؤلفة "إله الأشياء الصغيرة"، إنها مثلك يا أوريانا مستعدة دائمًا لبدء الغارة، استخدمت روى المناقشة العالمية حول أسامة بن لادن، لتطلب أن يتم تسليم رئيس اتحاد الكربيد الأمريكى؛ ليمثل أمام محكمة هندية، إذ إنه تسبب فى انفجار عام ١٩٨٤م فى المصنع الكميائى لبوبال فى الهند، والذى نتج عنه مقتل ١٦ ألف شخص. هل هو إرهابى أيضًا؟ نعم من وجهة نظر هؤلاء الموتى هو كذلك.

إن الإرهابى الذى يظهر للعالم الآن بصفته عدوًا يجب التغلب عليه هو ذلك الملياردير السعودى، الذى، ومن داخل كهف من كهوف جبال أفغانستان أمر بالهجوم على البرجين التوأم، إنه ذلك المهندس الطيار، الإسلامى المتعصب، الذى قتل نفسه

(*) يونيون كارابايد كوربوريشن هى شركة مملوكة بالكامل (منذ عام ٢٠٠١م) لشركة داو للكيماويات، ويعمل بها حاليا أكثر من ٢٤٠٠ شخص. وفى تاريخها الكثير من الكوارث الكميائية أشهرها تلك التى وقعت بواسطة شركة كاربايد الهند المحدودة المالكة لمصنع المبيدات فى مدينة بوبال الهندية، بولاية ماديا براديش. ففى منتصف ليلة ٣ ديسمبر ١٩٨٤م، تسرب غاز إسوسيانات الميثيل (MIC) عن طريق الخطأ من المصنع، وأكدت حكومة ولاية ماديا براديش ٣٧٨٧ حالة وفاة وإصابة ٤٠٠٠٠ بإعاقات دائمة، وتشوهات وأمراض خطيرة، مات العديد منهم بعد ذلك مما رفع حصيلة الضحايا، وهو ما يجعلها واحدة من أسوأ الكوارث الصناعية فى تاريخ العالم. (المراجع)

ومعه آلاف من الأبرياء، إنه ذلك الصبي الفلسطيني الذي بواسطة حقيبة معبأة بالديناميت يفجر نفسه وسط الزحام.

ولكن يجب أيضًا أن نقبل أنه بالنسبة للآخرين "الإرهابي" يمكن أن يكون رجل أعمال وصل إلى بلاد العالم الثالث بحقيبة مملوءة ليس بالقنابل، ولكن بخطط لبناء مصنع كميائي، والذي بسبب خطورة تعرضه للانفجار أو التلوث الذي يسببه لا يمكنه أن يبنيه في بلده الغني من بلاد العالم الأول. وأيضًا المركز النووي الذي يصيب البشر الذين يعيشون حوله بالسرطان، أو ذلك السد الذي يتسبب في إجلاء عشرات الآلاف في العائلات عن منازلهم. أو ببساطة بناء مصانع كثيرة صغيرة لإنتاج منتجات ثانوية والتي تعمل على تحويل الفلاحين إلى عمال لإنتاج الأحذية الرياضية، وعندما يكتفون بالعمل في تلك المنطقة ينقلون أعمالهم لمنطقة أخرى ويغلقون تلك المصانع، وبالتالي يبقى العمال دون عمل، ونظرًا لأن الحقول التي كانوا يزرعون فيها الأرز لم تعد موجودة يتعرض السكان للموت جوعًا!

إن هذه ليست نزعة إلى النسبية، أريد فقط أن أقول إن النزعة الإرهابية لا تكمن فقط في استخدام العنف؛ حيث يمكنها أن تقدم نفسها في صيغ متعددة، أحيانًا أيضًا اقتصادية، لذلك يصعب الوصول إلى تعريف عام للعدو الذي يجب استئصاله.

إن الحكومات الغربية اليوم في تحالفها مع الولايات المتحدة الأمريكية تُطالب بأن تعرف بالتحديد من هم الإرهابيون؟ وكيف سيتم القضاء عليهم؟ ولكن يبدو مواطنو تلك الدول أقل اقتناعًا.

وحتى هذه اللحظة لم تقم في أوروبا مسيرات شعبية لأجل السلام، ولكن يسود نوع من الاستياء، كما يسود أيضًا الاضطراب حول ما يريدونه بديلاً عن الحرب. حمل بعض المتظاهرين في ألمانيا لافتة تقول: "اعطونا شيئًا أفضل من الرأسمالية"، وعلى إحدى اللافتات التي يحملها بعض الشباب في مسيرة منذ بضعة أيام في بولونيا كتبوا: "إن العالم العادل لم يُولد قط".

فعلاً، ربما هذا هو الشيء الذي نطالب به جميعًا، "عالم أكثر عدلاً"، والآن أكثر من أي وقت مضى. عالم يهتم فيه من لديه كل شيء بمن ليس لديه شيء على الإطلاق، عالم يقوم على مبادئ المساواة ويستمد أفكاره أكثر من الأخلاقيات.

إن التحالف الموجود الآن على أوسع مستوى، والذى تحاول أمريكا أن تقيمه على أنقاض تحالفات قديمة، محاولة أن تقترب من بلاد وشخصيات كانت دائمًا موضع سخرية، فقط لأنها حاليًا تبدى تعاونًا يكفى بصفته مثالاً واضحا على نزعة اللامبالاة القاسية التى تنتهجها السياسة، وتتسبب فى نمو النزعة الإرهابية فى بعض مناطق العالم، وتحبط من عزيمة الكثير من الشخصيات الرائعة فى بلادنا.

ولتحصل الولايات المتحدة على أكبر دعم ممكن، بل لتصبغ أيضًا على الحرب ضد الإرهاب صبغة الشرعية الدولية، وتورط معها أيضًا الأمم المتحدة، إلا أن الولايات المتحدة ستكون وحدها المطالبة بعد ذلك بأن تدفع ما عليها للأمم المتحدة، فهى لم توقع بعد معاهدة محكمة العدل الدولية، ومعاهدة حظر استخدام الألغام المضادة للأفراد، ولا حتى المعاهدة الخاصة بكيوتو فيما يتعلق بالتغيرات المناخية.

إن المصلحة الأمريكية القومية تأتى فى مقدمة أى شىء، ولهذا فإن واشنطن تعيد اكتشاف فائدة باكستان، وهى البلد الذى كان مستبعداً من قبل بسبب قانونها العسكرى، بل تمت عقوبتها اقتصاديا بسبب تجاربها النووية، ولذلك أيضًا سيتم السماح قريبًا للمخابرات الأمريكية بأن تجند من جديد رجال المافيا والعصابات والتى تعهد إليهم "بأعمالها القذرة"، وذلك لكى تغتال هنا وهناك، فى أنحاء متفرقة من العالم الأشخاص الذين ستضعهم فى قائمتها السوداء.

ولكن علينا أن ندرك أنه يومًا ما يجب أن يعود ارتباط السياسة بالأخلاق؛ ذلك إذا أردنا أن نعيش فى عالم أفضل، سواء فى آسيا أو فى إفريقيا، فى تيمبوكتو كما فى فلورنسا.

وفيما يتعلق بفلورنسا يا أوريانا، فأنا أيضًا أذهب إلى هناك - مثلما أنا هنا اليوم - وهذه المدينة تؤلمنى وتحزننى فعلاً، فلقد تغير فيها كل شىء، أصبح كل شىء فظا. لكن ليس هذا خطأ الإسلام أو المهاجرين الذين استقروا بها، لم يصنعوا هم من فلورنسا بلداً تجاريا، لم يصنعوا منها عاهرة السياحة! لقد حدث هذا فى كل مكان، ويا لها من فضيحة. ولكن ليس لأن المسلمين يخيمون فى ميدان الدوومو، ولا بسبب الفيليبينيين الذين يجتمعون كل خميس فى ميدان سانتا ماريا موفيللا، والألبان الذين

يجتمعون حول المحطة. لقد أصبحت هكذا لأنها "تحولت"، لأنها لم تقاوم هجوم تلك القوة - التى بدت حتى الأمس قوة لا تُقاوم - قوة السوق.

ففى غضون عامين اختفت من أحد الشوارع الجميلة فى وسط المدينة، شارع مورنابوونى، والذى كنت أحب كثيرًا أن أتجول فيه وأنا صغير، اختفت مكتبة تاريخية وبار قديم وصيدلية عريقة ومحل موسيقى، وماذا حل محلها؟! محلات الموضة الكثيرة، صدقينى لم أعد أجد نفسى هنا كذى قبل، ولهذا أصبحت أمكث أنا أيضًا منعزلاً فى شىء يشبه الكوخ فى الهيمالايا الهندية، أمام أكثر الجبال قدسية فى العالم. أقضى هناك الساعات وحيدًا، أنظر إلى تلك الجبال الشامخة والثابتة، رمز الاستقرار والثبات، إلا أننى أجدها هى أيضًا تتغير باستمرار مع مرور الزمن، تتغير بلا توقف كما يحدث الآن لكل شىء فى العالم.

إن الطبيعة هى أعظم معلم يا أوريانا، نحتاج لأن نعود إليها كل فترة لنتعلم منها درسًا جديدًا. فلتعودى إليها أنت أيضًا.

فبوجودك مُعلبة هكذا فى شقة تشبه الصندوق داخل صندوق أكبر وهى ناطحة السحاب، وأمامك ناطحات سحاب أخرى مملوءة بآخرين معلبين سينتهى بك الأمر لأن تشعرى بالوحدة، وبأن وجودك ليس سوى حادث، ولن تشعرى أبدا بأنك جزء من عالم آخر مختلف تمامًا، عالم أكبر بكثير من كل الأبراج الموجودة، ومن تلك التى أُزيلت من الوجود. انظرى إلى انطلاقة الأعشاب أمام الرياح وحاولى أن تكونى مثلها، عندها سيفارقك الغضب.

أحييك يا أوريانا، وأتمنى لك من كل قلبى أن تجدى السلام؛ لأنه إذا لم يوجد السلام بقلوبنا أولاً، لن يوجد فى أى مكان آخر.

خطاب من بيشاور

فى بازار الحكاواتية

بيشاور، ٢٧ أكتوبر ٢٠٠١م

حضرت إلى مدينة جبهة القتال هذه لأكون أكثر قربًا من الحرب، لأحاول أن أراها بعيني، ولأكون صورة لما يحدث بنفسي. ولكن كمن يقفز في الحساء، ليعرف إذا كان مالحًا أم لا، أشعر الآن بأنني أغرق في داخلها. أشعر بأننى أغوص فى بحر الجنون الإنسانى والذى، بتلك الحرب، لا تبدو له حدود. تمر الأيام، ولكننى لا أستطيع أن أزيح الحزن عن كاهلي؛ حزن من يتوقع ذلك الذى سيحدث ولا يمكنه تجنبه، حزن بأننى ممثل الحضارة الأكثر حداثة، وأكثر ثراء، وأكثر تطورًا فى العالم والمشغولة الآن فى قصف البلد الأكثر بدائية والأكثر فقرًا على الأرض؛ وحزن بأننى أنتمى إلى الجنس الأكثر سمنة، والأكثر شبعًا، والمنكب الآن على إضافة المزيد من الألم والبؤس على الحمل الثقيل من اليأس لأكثر الناس نحافة وجوعًا على كوكب الأرض. يوجد شيء غير أخلاقي، شيء مُدنس، ولكن يبدو لي، هناك شيء أحمق فى كل ما يحدث.

بعد ثلاثة أسابيع منذ بداية القصف الإنجليزى الأمريكى على أفغانستان والوضع العالمى أصبح أكثر توترًا وعلى وشك الانفجار، أكثر مما كان من قبل. العلاقات بين الإسرائيليين والفلسطينيين أكثر اشتعالاً، والعلاقات بين باكستان والهند تكاد تنقطع. العالم الإسلامى بأكمله فى حالة توتر وكل الأنظمة المعتدلة فى العالم بداية من مصر إلى أوزباكستان إلى باكستان نفسها تعانى من الضغط المتصاعد من قبل الجماعات الأصولية. على الرغم من كل الصواريخ والقنابل، والعمليات السرية للكوماندوز، والتى يرينا البنتاجون منها بعض الملامح، وكأنه يريدنا أن نصدق أن الحرب ليست إلا ألعاب فيديو، فإن جماعة طالبان ما زالت تسيطر على الموقف بقوة، ويزداد التعاطف معهم بداخل أفغانستان بينما يقل فى كل ركن من أركان العالم شعورنا بالأمان.

– هل أنت مسلم؟

سألنى أحد الشباب عندما توقفت فى أحد البازارات لأتناول فطيرة من الخبز.

- لا

- ماذا تفعل هنا إذن؟ عن قريب سنذبحكم جميعًا.

يضحك الجميع حولى، وأبتسم أنا أيضًا.

يطلقون عليه كيسا قانيا، بازار الحكواتية منذ نحو عشرين عامًا كان آخر مناطق اللقاء الرومانسية فى أسيا، مملوءًا بأكثر البضائع تنوعًا ومختلف أنواع البشر. أصبح الآن شيئًا كغرفة الغاز، حيث لا يمكن تنفس الهواء النقى فيه بسبب الازدحام الشديد والحشود التى يزداد مستواها سوءًا؛ حيث يتوافد على المكان العديد من اللاجئين والمتسولين.

من بين القصص القديمة التى كانوا يقصونها كانت هناك حكاية "آفيتابيلى"، جندى مرتزق من نابولى، والذى وصل إلى هنا فى منتصف الثمانينيات مع صديق له من مودينا وأصبح حاكم هذه المدينة. وليحكمها بقبضة حديدية كان يقوم فى كل صباح، ساعة الإفطار، بشنق اثنين من اللصوص على أعلى منارات الجامع، ومنذ تلك اللحظة كانوا يقولون للأطفال: إذا لم تتصرف بطاعة سأعطيك لآفيتابيلى.

اليوم كل الحكايات التى سردوها فى البازار تدور حول الحرب الأمريكية.

بعضها مثل تلك التى تقص أن الهجوم على نيويورك وواشنطن هو من تخطيط مخابرات تل أبيب، ولذلك لم يذهب أى إسرائيلى للعمل فى البرجين التوأم فى الحادى عشر من سبتمبر، وقصة أخرى تقص أن بكتيريا الجمرة الخبيثة التى أُرسلت عن طريق البريد هى إحدى عمليات المخابرات الأمريكية، لكن تُعد الأمريكيين نفسيًا لقصف صدام حسين، وهى قصص قديمة بالفعل، ولكنها ما زالت متداولة، وبل يصدقها الناس.

القصة الأخيرة هى أن الأمريكيين أدركوا أخيرًا أن أفغانستان لن تركع فقرروا إلقاء أجولة مملوءة بالدولارات فوق الناس.

- وكل صاروخ يساوى مليونى دولار. لقد ألقوا بالفعل أكثر من مائة. لتتخيل: إذا كانوا قد أعطوا لنا كل هذه النقود لما بقيت طالبان فى السلطة حتى الآن.

قال هذا أحد اللاجئين المسنين، القائد السابق لإحدى مجموعات المجاهدين المناهضة للسوفييت، والذى جاء ليجلس بجوارى.

إن فكرة أن الأمريكيين لديهم ثروات باهظة وأنهم على استعداد لأن يكونوا كرماء مع من ينضم لصفوفهم فكرة منتشرة جدا. منذ عدة أيام قام بضع مئات من الزعماء الدينيين، ورؤساء القبائل فى المجتمع الأفغانى، الموجودين فى المنفى، بالاجتماع فى مسرح مفتوح فى وسط بيشاور، لمناقشة مستقبل أفغانستان "فيما بعد طالبان"، لمدة ساعات طويلة قام بعض السادة الملتحين "جدا"، والمناسبين جدا ليتصدروا شاشات تليفزيونات الغرب، بالاقتراب من الميكروفونات للتحدث عن "السلام والوحدة"، ولكن لم تكن هناك أى انفعالات فى أحاديثهم، ولا أى قناعات.

قال لى أحد الأصدقاء القدامى، أحد المثقفين الباكستانيين من أصل باشتونى[1] مثل هؤلاء المتحدثين: أنا هنا فقط لأسجل اسمهم ولأحاول أن أجمع مصادر أمريكية. كل واحد منهم ينظر إلى الآخر متسائلاً: وأنت كم قبضت يا ترى؟ ولكن الأمريكيين ينسون مثلاً قديمًا لدينا: الأفغانى يمكن استئجاره ولا يمكن شراؤه. بالنسبة للأمريكيين، كان اجتماع بيشاور أول خطوة مهمة لذلك الذى يبدو لهم، على الأوراق، الحل السياسى الأمثل للمشكلة الأفغانية: العمل على عودة الملك زهير شاه، وتشكيل حكومة فى كابول يتم فيها تمثيل الجميع، ربما أيضًا من خلال بعض قادة طالبان المعتدلين - وإرسال جيش النظام الجديد ليبحث عن رجال القاعدة، وبهذا يوفرون العمل والمخاطر على جنود التحالف. ولكن الحلول المطروحة على الورق لا تعمل جيداً على أرض الواقع، وخاصة إذا كانت الأرض هى أفغانستان. إن فكرة أن الملك القديم، الموجود فى المنفى فى روما منذ ثلاثين عامًا، يمكنه أن يلعب دورًا فى تاريخ البلد وهو وهم من يعتقد أنه يمكنه أن يعيد تشكيل العالم وهو جالس على مائدة، هى ذريعة أولئك الدبلوماسيين الذين لا يخرجون من حجراتهم ذات الهواء المكيف. يكفى أن نذهب بين الناس لنُدرك أن الملك المسن لا يستمتع بذلك التقدير الذى تمنحه له القنصليات الغربية،

---

(١) الباشتون هم إحدى المجموعات السكانية فى أفغانستان وأكبرها عددا ٤٠٪، ويعدها الطاجيك ٢٥٪، ويعدها الهزارة ٢٠٪، ثم الأوزبك ٧,٥٪ والتركمان ٢٪ والباقى مجموعات عرقية أخرى.

وخاصة تلك الإيطالية، وإن عدم ظهوره قط، بل عدم زيارته لأى من معسكرات اللاجئين يتم عده علامة على عدم اكتراثه بمعاناة شعبه. لو كان قد ظهر فى زمن الغزو السوفييتى والتقطت له صورة فوتوغرافية وهو يمسك بالمسدس فى يده أو ربما يضرب طلقة فى الهواء، لاحترمه الجميع اليوم. هكذا قال لى صديقى وأضاف: "ثم إنه لم يذهب قط للحج فى مكة، وهو الشىء الذى كان سيضفى تجاهه بعض الارتياح، من وجهة النظر الدينية، فى الأوقات الحالية".

بالإضافة إلى الملك، فإن الرجل الآخر الذى يعتمد عليه الأمريكيون فى هذه اللعبة كان عبدالحق[1]، أحد أكثر قادة المقاومة المناهضة للسوفييت المعروفين، والذى مكث فى الخارج بسبب الحرب الأهلية التى تلت ذلك.

– لم يعد هنا، ذهب إلى أفغانستان.

كانوا يقولون هذا فى أثناء مؤتمر بيشاور، يشيرون بذلك إلى "مهمة" ستكون حاسمة بالنسبة للمستقبل. كانت الفكرة الواضحة هى أن يعمل "عبدالحق"، من خلال شهرته وقوة تأثيره على شيوخ المجاهدين المتحالفين مع طالبان، على فصل بعض القادة المحليين من نظام المُلا "عمر، ثم يسير تجاه كابول على رأس مجموعات الباشتون عندما يكون حلف الشمال قد استولى على العاصمة، والذى لا يريد الباشتون والباكستانيون رؤيتهم أبدًا وقد وصلوا إلى السلطة. لم تستمر "مهمة" عبدالحق طويلاً. راقبه الطالبانيون بمجرد دخوله إلى أفغانستان، وبعد بضعة أيام قبضوا عليه وخلال بضع ساعات حكموا عليه بأنه "خائن" هو وأتباعه. لم يستطع الأمريكيون على الرغم من معداتهم الإلكترونية وطائراتهم الهيليكوبتر السوبر إنقاذه. كان الغرض من كل تلك المناورة الأمريكية من أجل حل سياسى أن يسقط نظام طالبان، وأنه تحت ضغط القنابل تبدأ الانشقاقات وينشأ فى البلاد فراغ السلطة. ولكن لم يحدث شىء من هذا، بل تؤكد المؤشرات أن الطالبانيين ما زالوا فى السلطة. قبضوا على الصحفيين

---

(١) عبد الحق، ٤٣ سنة، أعدمته طالبان عام ٢٠٠١م وكان من أشهر المجاهدين الأفغان وأشجعهم ضد الاحتلال الروسى، ولكنه انسحب من الحياة السياسية بعد انسحاب السوفييت ونشوب الحرب الأهلية بين فصائل المجاهدين، واتخذ من دولة الإمارات مقرًا له، مع المحافظة فى الوقت ذاته على اتصالاته بالداخل الأفغانى.

الأجانب والذين غادروا وابتعدوا عن الحدود، بل أعلنوا، ليحبطوا أى محاولات أخرى، بأن ليس لديهم مكان ولا طعام للقبض على آخرين. وقالوا، كما تفعل أى دولة ذات سيادة: التحقيقات المختلفة جارية. سيتم محاكمتهم جميعًا حسب الشريعة الإسلامية. يقوم الطالبانيون بسن قوانين، ويدلون بتصريحات لتكذيب أخبار مزيفة، وما زالوا يتحدون القوة العظمى الأمريكية بأنهم لن يتنازلوا عن أراضيهم، كما أنهم متوعدون بالموت لأى أفغانى ينضم لصفوف الأعداء.

ليس هذا فقط، ففى واقع الأمر أدت مهاجمة الأجانب لطالبان إلى أن من كان لا يتعاطف مع نظامهم، أو كان تعاطفه قليلاً، انضم إليهم الآن. يقول الباشتونيون: عندما ترى بطيخة بطيخة أخرى فهى تتخذ لونها؛ أمام الأجانب والذين ينظرون إليهم بوصفهم غزاة، يتحد الأفغانيون معًا.

بالنسبة للأمريكيين، والواقعين حاليًا بالفعل تحت ضغط دولى بسبب حماقة قنابلهم الذكية، التى ما زالت تسقط على أشخاص أبرياء، ومرة أخرى على مستودعات الصليب الأحمر، فقد كشفت الحرب الجوية، فى الأسابيع الثلاثة الأخيرة، عن فشل ذريع وكشفت تلك السياسة عن عدم جدواها.

بدأ الأمريكان الحملة الأفغانية قائلين إنهم يريدون أسامة بن لادن حيا أو ميتًا، ثم سرعان ما أضافوا بأنهم يريدون القبض على الملا عمر، زعيم طالبان، آملين أن يعمل هذا على الإطاحة بالنظام، ولكن حتى الآن لم ينجحوا سوى - بالإضافة إلى إسقاط أكثر من مائة ضحية مدنية - فى بث الرعب فى نفوس سكان المدنية التى تحولت بالفعل إلى حُطام. أحصت الأمم المتحدة أن القنابل تسببت فى هروب ٧٥٪ من السكان من كاندهار وكابول وجلال آباد. هذا يعنى أنه على الأقل يوجد مليون ونصف أو مليونا شخص بلا مأوى حاليًا، يطوفون جبال البلدة ويُضافون إلى الملايين الستة، التى حسبما تنص تقارير الأمم المتحدة، كانوا بالفعل "فى خطر"، بسبب نقص الطعام والحماية قبل الحادى عشر من سبتمبر.

يقول أحد الموظفين الدوليين: أولئك هم الأبرياء الذين علينا الاهتمام بهم، إنهم لا دخل لهم بأى إرهاب، إنهم لا يقرؤون الصحف ولا يشاهدون السى إن إن. إن العديد منهم لم يعرف حتى ماذا حدث فى برجى نيويورك.

لكن ما يعرفه الجميع هو أن القنابل، تلك القنابل التي تُدمر وتقتل وتزلزل الأرض وكأنها زلزال مستمر، نهارًا وليلاً، القنابل التي تلقى بها الطائرات الفضية التي تلمع في سماء أفغانستان الزرقاء، هي قنابل إنجليزية أمريكية، وهذا يجمع كراهية الباشتون والأفغان، وبصورة عامة كراهية المسلمين ضد الأجانب. كل يوم تزداد العداوة وتتضح على وجوه البشر.

كنت قد ذهبت إلى البازار لأنني أردت أن أحصي عدد من يمكن أن يشتركوا في المظاهرة المؤيدة لطالبان والتي تُقام بشكل دوري في بيشاور القديمة بعد صلاة الظهر، ولكن صديقي الباشتوني أخبرني أن عدد المتظاهرين لا يعني الكثير، وأضاف: إن الأكثر تشدداً لا يتظاهرون بأنهم ينضمون لصفوفهم، اذهب إلى القرى.

فعلت كما نصحني، ولمدة يوم وليلة كنت في صحبة طالبين جامعيين، وكان يبدو أنهما يعرفان الجميع وكل شيء في هذه المقاطعة. ألقيت نظرة على عالم لا يقاس بعده عن عالمنا بالكيلومترات، ولكن بالقرون: عالم لابد لنا أن نفهمه جيداً إذا أردنا تجنب الكارثة التي تقبع في انتظارنا.

والمقاطعة التي ذهبت إليها على بعد ساعتين بالسيارة من بيشاور، في منتصف الطريق بين الحدود الأفغانية - الباكستانية، بالنسبة للشعوب الموجودة هنا فإن الحدود، حتى تلك المؤسسة على مائدة المفاوضات منذ أكثر من مائة عام بواسطة موظف إنجليزي، لا وجود لها.

من جانب إلى آخر لذلك التقسيم، غير الطبيعي، بين الجبال المتشابهة، يعيش شعب واحد، شعب الباشتون (والذي يُقال عنه أيضًا باثان)، وهم أغلبية في أفغانستان وأقلية في باكستان. إن الباشتون، قبل أن يكونوا أفغانا أو باكستانيين، يشعرون بأنهم باشتون، وحلم الباشتوني بدولة تجمع كل الباشتونيين لم تغرب عنه الشمس تماماً.

إن الباشتون هم المحاربون المُرعبون في أفغانستان، لم يستطع الإنجليز هزيمتهم. كانوا يقولون إن الباشتوني يحب بندقيته أكثر من حبه لابنه.

إن طالبان تتكون من الباشتون، وحاليًا تسقط القنابل الأمريكية، حصريا، على مناطق الباشتون. واحد من الطلبة الذين قد تعرفت عليهم كان يقول لي ونحن في

طريقنا لمغادرة بيشاور: كان أبى دائمًا ليبراليا معتدلاً، ولكن بعد عمليات القصف الأخيرة أصبح هو أيضًا يتحدث معى مثل طالبان، ويؤكد لى أنه لا يوجد بديل للجهاد.

كان الطريق يجرى بين مزارع قصب السكر، على الجدران البيضاء التى كانت تفصل الحقول، تظهر شعارات كبيرة، رُسمت مؤخرًا: "الجهاد هو واجب الأمة"، "أى صديق للأمريكيين خائن"، "الجهاد سيستمر إلى يوم الدينونة"، وكان أكثر الشعارات غرابة: "الرسول أمر بالجهاد ضد الهند وأمريكا".

لم يسأل أحد نفسه إذا كان في زمن الرسول، منذ ألف وأربعمائة سنة كانت كل من أمريكا والهند قد أصبحتا فى حيز الوجود.

لكن هذا الخليط المتعامى من الجهل والإيمان هو خليط متفجر عادة، وينشأ من خلال نسخة تبسيطية وأصولية من الإسلام، ذلك الإخلاص للحرب والموت واللذين قررنا – ربما فى تهور شديد – مواجهتهما.

"عندما يقفز أحد جنودنا فوق لغم، وتمزقه قنبلة، نأخذ الأجزاء المتبقية، وأشلاء الأجساد والعظام المهشمة ونضع كل شىء فى قماشة العمامة، وندفن تلك الربطة، هناك فى الأرض. نحن نعرف كيف نموت. ماذا عن الأمريكان؟ وماذا عن الإنجليز؟ هل يعرفون الموت بهذه الطريقة؟".

من مؤخرة الحجرة خرج رجل ملتح آخر، عندما تذكر ما قلته عندما كنت أقدم نفسى عن البلد الذى جئت منه، فتح جريدة أردية، وبصوت مرتفع قرأ خبر أن إيطاليا أيضًا عرضت أن تُرسل سفنًا وجنوداً، وتحدث شخص: وأنتم الإيطاليون إذن، هل أنتم أيضًا على استعداد للموت بهذه الطريقة؟ ألستم أنتم أيضًا قد حضرتم إلى هنا لتقتلوا شعبنا، ولتدمروا مساجدنا؟ ماذا كنت ستقول إذا ذهبنا نحن لتدمير كنائسكم، إذا أتينا لندك الفاتيكان ونسويه بالأرض؟

نحن فى شىء كعيادة خارجية بدائية جدا لقرية على بعد عشرة كيلومترات من الحدود الأفغانية، فوق الأرفف التى تغطيها الأتربة توجد بضعة أدوية تغطيها الأتربة أيضًا، فوق الحائط يوجد علم أخضر وأسود فى وسطه شمس مكتوب عليها "جهاد".

حول "الطبيب" الذى يتحدث معى اجتمع عشرات من الشباب، بعضهم من المحاربين المحنكين والبعض الآخر على وشك الانضمام. أحدهم عاد لتوه من الجبهة وكان يحكى عن عمليات القصف، كان يقول إن الأمريكيين جبناء لأنهم يضربون من السماء، يضربون ولا يجرؤون على الحرب وجهًا لوجه. يقول إن باكستان تمنع اللاجئين من الدخول إلى البلد وإن العديد من المدنيين، المصابين بسبب القصف على جلال آباد، يموتون الآن على الجانب الآخر من الحدود، بسبب نقص الإسعافات الأولية.

الجو شديد التوتر، هنا أكثر من البازار أيضًا، الجميع مقتنع تمامًا أن ما يحدث الآن هو مؤامرة صليبية من الغرب للقضاء على الإسلام، وأن أفغانستان ليست إلا الهدف الأول، وأن الطريقة الوحيدة للمقاومة هى أن ينضم العالم الإسلامى كله للدعوة للحرب المقدسة.

قال أحد هؤلاء الشباب: فليحضر الأمريكان إلى هنا، هكذا يمكننا أن نصنع لأنفسنا أحذية جديدة بأن ننتزعها من أجسادهم، ستكلفكم الحرب الكثير جدا، ولن تكلفنا شيئًا، لن تتمكنوا من هزيمة الإسلام أبدًا.

أحاول أن أشرح أن الحرب الدائرة الآن هى حرب ضد الإرهاب وليست حربًا ضد الإسلام، أحاول أن أقول إن هدف التحالف الدولى الذى يقوده الأمريكان ليس الأفغان ولكن أسامة بن لادن، والطالبان الذين يحمونه. ولكننى لا أتمكن من إقناع أحد. يقول "الطبيب": أنا لا أعرف من هو أسامة، لم أقابله قط، ولكن إذا كان أسامة قد وُلد بسبب الظلم الواقع على فلسطين وعلى العراق، فلتعلموا أن هذا الظلم الذى يُرتكب الآن فى أفغانستان سيعمل على ظهور أعداد كثيرة جدا مثل أسامة».

أنا مقتنع بهذا تمامًا، والدليل على ذلك يقع أسفل ناظرى، فالعيادة الطبية هى مركز لتجنيد الجهاد، و"الطبيب" هو رئيس مجموعة من عشرين شابًا سيرحلون فى اليوم التالى إلى أفغانستان. كل منهم سيحمل معه سلاحًا، وبعض الطعام وبعض النقود، فى كل قرية توجد مجموعات مماثلة.

يتحدث "الطبيب" عن بضعة آلاف من المجاهدين – الذين انطلقوا من هذه المقاطعة، باكستان فى السابق – على وشك الذهاب ليحاربوا مع طالبان.

والتدريب؟ الجميع، كما يقول الطبيب، لديه شهران ليتعلم استخدام الأسلحة وتقنيات الحرب. لكن الشيء الأهم هو التكوين الديني الذى تلقوه منذ الصغر فى المدارس القرآنية الصغيرة، من خلال المدارس المتفرقة فى الحقول، واصطحبونى لأزور إحدى تلك المدارس.

كانوا يجلسون على الأرض، أمامهم موائد صغيرة خشبية، نحو خمسين طفلاً - كانت توجد أيضًا بعض الفتيات - تتراوح أعمار الأطفال بين ثلاث إلى عشر سنوات، جميعهم يكسوهم الشحوب، نحفاء ومُرهقون، كانوا يرددون بلا توقف الآيات القرآنية. بلغتهم؟ لا، بل باللغة العربية، والتى لا يفهمها أحد.

شرح لى الشاب الملتحى الذى كان يعمل معلمًا لهم: لكنهم يعرفون أنهم إذا نجحوا فى حفظ القرآن كله، سيذهب هو وعائلته كلها إلى الجنة، وسبعة أجيال بعدهم! كان عمره خمسة وثلاثين عامًا، متزوجا ولديه خمسة أبناء، مريضًا بالقلب، وهو أيضًا أخو شيخ الجامع المحلى. كان يقول إنه على الرغم من ظروفه الصحية فإنه هو أيضًا سيذهب ليحارب. كان ينتظر فقط أن ينزل الأمريكيون من طائراتهم ويظهرون على الأرض: إذا لم يتوقفوا عن قصف قنابلهم، سنكّون جيوشًا صَغيرة من الرجال وسنذهب لوضع القنابل وغرس علم الإسلام فى أمريكا، وإذا قبضت علينا المخابرات الفيدرالية سننتحر. كان يقول هذا بابتسامة عصبية.

بالإضافة إلى حفظ القرآن، كانت المدارس تُعلم القليل أو لا شيء، ولكن بالنسبة للعائلات الفقيرة فى المنطقة، تلك البائسة جدا، كان هذا التعليم المتاح الوحيد، ونتيجته هم الشباب الذين يذهبون الآن إلى الجهاد.

وأينما توقفت فى تلك الساعات لم أستمع إلا لأحاديث مشحونة بالتعصب والتخاريف، يقينيات مؤسسة على الجهل. ولكننى، عندما استمعت إلى أحاديث الناس هناك، كنت أتساءل: كم نمتلئ نحن أيضًا - المثقفين والمتخمين بالمعرفة - بمعرفة مفتعلة، وكم ينتهى بنا الأمر أيضًا لأن نصدق الأكاذيب التى يقصونها علينا.

بعد مرور سبعة أسابيع من الهجوم على أمريكا، لم تكن الأدلة التى وعدونا بها على إدانة أسامة بن لادن، وبالتالى طالبان، قد قُدمت بعد، لكن تلك الإدانة قد أصبحت

شيئًا مُسلما به. نحن أيضًا نترك الكلمات تخدعنا وصدقنا، بالفعل إن العملية الأولى للقوى الأمريكية الخاصة فى أفغانستان كان الهدف منها العثور على مركز قيادة طالبان، دون أن نُفكر، كما قال لى صديقى إن هذا المركز لا وجود له، أو إنه على الأقصى لن يكون سوى كوخٍ من الطين وبداخله سجادة صلاة، وبعض الحمام الزاجل، نظرًا لأن الطالبانيين لم يعد فى إمكانهم استخدام خطوط الراديو والتى سيتمكن الأمريكيون من اقتفاء أثرها بسرعة.

أليس تعصب الأصوليين مشابهًا لإيماننا المتعجرف بأن لدينا حلاً لكل شىء؟ أليس إيمانهم الأعمى بالله يتشابه مع إيماننا بالعلوم والتكنولوجيا، وبالقدرة على أن نضع الطبيعة فى خدمتنا؟ إننا نذهب اليوم، بتلك اليقينيات، لنحارب فى أفغانستان بالوسائل الحديثة، والطائرات غير المرئية، والصواريخ البعيدة، والقنابل التى تقتل بقوة أكبر؛ وذلك لننتقم من تصرف هجومى ارتكبه شخص مسلح فقط بقطاعة ورق وبرغبة أكيدة فى الموت.

كيف لا نستطيع أن نُدرك أننا لنحارب الإرهاب أتينا لنقتل الأبرياء، وبهذا قمنا أيضًا باستفزاز الوحش القابع أكثر وأكثر؟ كيف لا يمكننا أن نرى أننا قمنا بخطوة فى الاتجاه الخطأ، وأننا دخلنا إلى مستنقع من الرمال المتحركة، وأنه مع كل خطوة نتقدمها لا نقوم سوى بالابتعاد عن طريق النجاة من هذا المأزق؟

فى أعقاب حوارى مع متشددى الجهاد استمر الحوار بينى وبين نفسى طوال الليل، الذى قضيته مستيقظًا أحاول حماية نفسى من البعوض.

بالتأكيد لا يمكن للمرء أن يشعر بالحقد إزاء مجتمع مثل هذا، لا ينتج سوى صبية محدودى الذكاء ومستعدين للموت؟ ولكن أليس مجتمعنا أيضًا هكذا؟ أليس المجتمع الأمريكى الذى بجوار أبطال إطفاء الحريق فى منهاتن، ينتج أيضًا أشخاصًا مثل انتحاريى أوكلاهوما، الذين هاجموا عيادات الإجهاض، بل أيضًا – والشك يتزايد بهذا الشأن– يضعون بكتيريا الجمرة الخبيثة فى أظرف ليرسلونها لنصف العالم؟

إن ما ألقيت عليه نظرة للتو هو مجتمع مشحون بالكراهية. ولكن ليس أقل كراهية حاليًا من مجتمعنا، الذى بدافع الانتقام أو ربما أيضًا ليضع يده على المصادر

الطبيعية لوسط أسيا، يقصف بلدًا حولته بالفعل عشرون عامًا من الحرب إلى حطام كبير؟

هل من الممكن أنه من أجل حماية الطريقة التى نعيش بها أن يتسبب هذا فى تشريد الملايين، وأن نقتل النساء والأطفال؟ أرجوكم: هل يمكن أن يشرح لى أى خبير فى التعريفات الفارق بين براءة الطفل الذى مات فى المركز التجارى العالمى وذلك الذى مات بسبب قنابلنا فى كابول؟

الفارق هو أن أطفال نيويورك هم "أطفالنا"، ولكن أطفال كابول، مثلهم مثل مائة ألف طفل أفغانى، والذين تبعًا لليونيسيف، سيموتون هذا الشتاء، إذا لم تصل الإمدادات سريعًا، هم "أطفالهم". وأطفالهم هؤلاء لا أهمية لهم بالنسبة إلينا.

لا يمكن كل مساء وقت العشاء أن نرى على شاشات التلفاز طفلا أفغانيا بأنف يسيل فى انتظار أن يتلقى رغيف خبز. لقد رأيناه العديد من المرات، ولم يعد له أى تأثير، بل قد اعتدنا هذه الحرب أيضًا.

لم تعد الحرب تتصدر الأخبار، وبدأت الصحف فى استدعاء مراسليها، وخفضت شبكات التليفزيون أعداد موظفيها، ونزعوا الاتصالات عن طريق القمر الصناعى من فوق أسطح الفنادق، ذات الخمسة نجوم فى إسلام آباد. لقد انتقل السيرك إلى مكان آخر، بحثًا عن قصص أخرى، لقد منحوا الأمر بالفعل اهتمامًا زائدًا.

إلا أن أفغانستان ستطاردنا؛ لأنها دليل على انحراف أخلاقنا، وادعائنا الحضارة، وعدم قدرتنا على فهم أن العنف لا يُولد سوى العنف، وأنه فقط من خلال قوة السلام وليس قوة الحرب يمكننا أن نحل المشكلة التى نواجهها.

"إن الحروب تبدأ فى أذهان البشر، لابد من بناء الدفاع بالسلام فى الأذهان". هذا ما جاء فى مقدمة تأسيس اليونيسكو. "لماذا لا نبحث فى أذهاننا عن حل بعيداً عن ذلك الحل الوحشى والهزيل والخاص بقنابل أخرى وبأموات آخرين؟ لقد طورنا معرفة عظيمة، ولكننا لم نُطور أذهاننا، بل بالأحرى لم نطور ضمائرنا". كنت أقول هذا لنفسى بينما أحاول إبعاد البعوض.

لحسن الحظ الليل قصير هنا، فى الخامسة والنصف بدأ الصوت المعدنى لمذياع بالآذان من فوق منارة مسجد قريب، ومن بعيد أصوات آذان أخرى تجيب عليه؛ لنخرج للصلاة.

فى قاعة استقبال الفندق؛ حيث أذهب لتناول الإفطار كان التلفاز مفتوحًا. لم يعد الخبر الأول هو الحرب فى أفغانستان ولكن التصريح الذى صدر فى واشنطن عن "أكبر تعاقد للتسلح فى العالم". قررت وزارة الدفاع الأمريكية بأن تعهد إلى لوكهيد مارتن ببناء الجيل الجديد من أحدث طائرات الهجوم؛ ثلاثة آلاف طائرة بقيمة مائتى مليار من الدولارات. سيبدأ العمل بتلك الطائرات فى عام ٢٠١٢م سألت نفسى: لنقصف من؟ أفكر فى صبية المدرسة والذين سيبلغون العشرين من عمرهم فى عام ٢٠١٢م، وتعود إلى ذهنى مرة أخرى عبارة "الطبيب المتعصب": إذا أراد الأمريكيون محاربتنا لمدة أربعة أعوام فنحن مستعدون، وإذا أرادوا محاربتنا لمدة أربعين عامًا فنحن مستعدون، وإذا أرادوا محاربتنا لمدة أربعمائة عام، فنحن أيضًا مستعدون.

ماذا عنا؟ إن هذه هى اللحظة التى لا بد فيها أن نفهم أن القصة تتكرر، وأن الثمن سيرتفع فى كل مرة.

خطاب من كيتا

الطالبانى والحاسوب

كيتا. ١٤ نوفمبر ٢٠٠١م

أكتب هذه السطور من لوكاندة متواضعة تطل على البازار الكبير للمدينة، حيث يختلط حشد كأنه من العصور الوسطى، رجال ملتحون يرتدون العمامات، تحيط بهم سحابة زرقاء اللون من الغاز الصادر عن الأتوبيسات والموتوسيكلات، والتى تختلط بالحمير والخيول وبالعربات التى تجرها الخيول. تقع الجبهة الأفغانية على بعد نحو مائة كيلومتر من هذه المدينة، والتى تحيطها المياه فى القلب من جبال جرداء رمادية/زرقاء. إنها أحد الشواطئ التى تتصارع على شواطئها أمواج الحرب القريبة تاركة فى الخلف بقايا الإنسانية المعتادة بعد الغرق وهم: اللاجئون والأيتام، المجروحون والمتسولون.

لا يكاد المرء يسير خطوتين دون أن يصطدم بالأيادى النحيفة المتسولة، والنظرات الفارغة لنساء خلف البرقع. استطعت العثور على غرفة هنا لأن "السائح" الأمريكى الذى كان يشغلها رحل فى صباح أحد الأيام إلى أفغانستان ولم يعد قط. كانت القصة الأولى المتعلقة باختفائه هى أن الطالبانيين قبضوا عليه وشنقوه على أنه عميل للمخابرات الأمريكية. القصة الأخرى بأنه قُتل فى تبادل لإطلاق النار، قال الطالبان ببساطة إن جثته موجودة فى قاندهار وإن من يريدها يمكنه أن يذهب ليستلمها. لم يفعل أحد ذلك، وقام صاحب اللوكاندة بتأجير حجرته لآخر. تبعًا لما رواه كان الأمريكى يطلق على نفسه لقب "الجنرال"، كان يتحدث لغتين محليتين ويُظهر للجميع حزمًا من الدولارات. لا أحد يعرف حقيقة شخصيته، ولا ماذا حدث بالفعل. حتى ما يتعلق بقصة صغيرة مثل هذه القصة أصبح من المستحيل الآن التحقق من وقائعها.

الوقائع! كنت أجرى كل حياتى وراءها مقتنعًا أنه فيها - فى الوقائع الأكيدة والموثقة - سأعثر على شيء من الحقيقة.

الآن وقد أصبح عمرى ثلاثة وستين عامًا، وأمام هذه الحرب التى بدأت لتوها، وبالشعور المسبق للقلق عما سيتبعها، يبدو لى أن الوقائع ليست سوى مظاهر، وأن

الحقائق لا يوجد بداخلها سوى ما بداخل الدمية الروسية: ما إن تفتحها حتى تجد بداخلها دمية أصغر، فتفتحها لتجد دمية أخرى أصغر، تفتحها هى أيضا فتجد دائما دمية أصغر.

إننا عندما نصاب بالصمم من التفاصيل الخاصة بالوقائع الكثيرة، نفقد دائمًا، وبصورة متصاعدة، الحس الجماعى. ما فائدة أن نعرف لحظة بلحظة معلومات حول سقوط مزارى شريف وكابول، عندما تكون هذه الوقائع مقدمة على أنها "انتصارات"، ولا ندرك أننا – على مستوى الإنسانية – فى مواجهة بعض الهزائم البشعة؛ ذلك أننا ما زلنا نلجأ إلى الحرب بوصفها حلاً للصراعات ورفض اللاعنف على أنه أكبر دليل على القوة.

هناك مقولة تقول إن الحقيقة هى أول من يموت فى كل الحروب. وفى هذه الحرب لم يكن لدى الحقيقة وقت حتى لكى تُولد. الجواسيس والمعلومات، والمتفاخرون والمستفيدون والمتسللون، هم الآن فى كل مكان، وخاصة فى مدينة على خط النار مثل هذه، ولكن أصبح دورهم هامشيا. إن من لهم بالفعل أهمية فى هذه الحرب هم الأطباء الجوالون، وخبراء الاتصال، وموظفو العلاقات العامة. فهم الذين يعتمون على حقيقة عدم جدوى هذه الحرب، وبالتالى يمنعون الرأى العام العالمى، وخاصة الأوروبى، أن يتخذ موقفا أخلاقيا وخلاقًا بهذا الشأن. أتت مجموعة من أولئك العلماء صانعى الوهم لتوها من واشنطن، لتستقر فى إسلام أباد "لإدارة" مئات من الصحفيين الأجانب الموجودين حاليًا فى باكستان، أحد الخبراء السوبر للمجموعة الخاصة التى، حتى الأمس، كانت تعمل فى البيت الأبيض، ذهب ليستقر فى ١٠ داونينج ستريت، مقر الوزارة الإنجليزية لمساعدة تونى بلير فى دوره بصفته داعمًا للأمريكيين، وكأنه هو، وليس كولن باول، وزير الخارجية الأمريكى.

إن حقيقة هذه الحرب تبدو كأنها مجهولة إلى حد كبير لدرجة أنها تحتاج باستمرار لأن يتم تأطيرها وأن تتم إدارتها، وأن تكون موضوع حملة تسويق خبيثة.

لكن هكذا أصبح عالمنا؛ لقد حلت الدعاية مكان الأدب، والشعارات تصدمنا الآن أكثر من الشعر ومن أبياته. الطريقة الوحيدة للمقاومة هى الامتناع عن التفكير بعقولنا، بل والأهم التفكير بقلوبنا.

لقد تركت بيشاور منذ أسبوعين وفى صحبة اثنين من طلاب الطب، الذين قابلتهم بالصدفة، قمت برحلة إلى باكستان. كانت الفكرة هى قياس الحرارة فى "بلد الأنقياء تلك" (وهذا معنى كلمة باكستان)، والتى نشأت عام ١٩٤٧م بفعل تقسيم المملكة الإنجليزية للهند لتمنح وطنًا للمسلمين، والموجودة الآن فى الصفوف الأولى من صراع، أحد تحدياته الكثيرة، هو بقاؤها نفسه على قيد الحياة.

كانت الفكرة هى أن أرى عن كثب تبعات الحرب فى أفغانستان، والتى يقول عنها الأمريكيون باستمرار إنها "فقط المرحلة الأولى"، ولنفهم ماذا سيحدث فى باقى العالم - عالمنا، وعالم الجميع - عندما ستنتقل هذه الحرب على المنوال نفسه إلى العراق والصومال والسودان، وربما أيضًا إلى سوريا ولبنان، ومن يدرى إلى أين أيضًا.

تبعًا لواشنطن؛ فإن البلاد التى تأوى الإرهابيين نحو سبعين، ومن لن يتعاون مع الولايات المتحدة لإخراجهم من أعشاشهم سيتم وصفه عدوا.

هل من الممكن أن تكون قد ارتفعت أصوات قليلة فقط فى أوروبا ضد هذا الجمود الانتحارى تقريبًا، لموقف أمريكا؟ هل من الممكن أن تكون أوروبا، بعد هذه الحقيقة، قد أصبحت أكبر ضحية لهذه الحرب؟

فى هذه الرحلة، ولتجنب فخ الطرق الإجبارية، التى يفرضها الباعة المتجولون، وتلك الأخرى للفنادق الفاخرة، والتى تشغلها جميعًا الآن "الصحف العالمية"، وتُقام فيها يوميا مؤتمرات صحفية، وتنطلق منها تصريحات وتفسيرات الوزراء السابقين، أو القادة الحالين على المعاش، قررنا بأن نمكث بعيداً عن كل ما هو رسمى وأن نتبع منطق ذلك الخط الوحيد الذى يمكن أن يصبح سحرًا حقيقيا؛ المصادفة.

وهكذا، وبالعبور من لقاء عابر وآخر، وبمساعدة صديقى الطالبين، انتقلت عبر مائة كيلومتر من زاوية إلى أخرى فى البلدة، وتحدثت مع عشرات الأشخاص، وحضرت أكبر تجمع إسلامى فى العالم - إذا استبعدنا ذلك الخاص بالحج إلى مكة - وفى النهاية تسببت فى أن صدر أمر بالقبض علينا من قبل وزير داخلية البالوشيستان والذى أطلق العنان لقواته الخاصة ليذهبوا لاصطيادنا فى مدينة شامان، على خط الحدود مع أفغانستان، حيث كنا نتوهم بأن نعبر - دون أن يلحظنا أحد - فى الليل.

بدأ كل شيء في بيت الشاي لذلك المركز الساحر لمدينة بيشاور، والذى هو بازار الحكواتية. كان يجلس بجوارنا، على مقعد مترب من القش يشرب الكاوا، وهو مشروب من الأوراق غير المفرية، في أباريق صغيرة سوداء من القذارة والانبعاج، رجل في نحو الثلاثين من عمره، ذو ذقن كثيف جدا، ونظرته كانت عذبة وحاسمة بطريقة غريبة. نظر كل منا إلى الآخر وتحدثنا، ومرت علينا الظهيرة بسرعة مع المرتادين الآخرين، والذين اجتمعوا جميعًا حولنا في دائرة، منذ مجيئي للاشتراك في هذا الحوار. لم أكن أعرف إذا كان كل ما حكاه لي أبو حنيفة حقيقيا، ولكن بمساعدة الطلبة أصدقائي، وبعض محاولات التأكد منها، أعتقد أنها كانت حقيقية.

كان يقول إنه وُلد منذ نحو ٣٥ أو ٣٧ عامًا مضت في مقاطعة غازني في أفغانستان، وإنه كان قائد ٢٥٠ طالبانيا، وأنه حارب ضد الهنود في كشمير. وتم استدعاؤه مرة أخرى إلى أفغانستان بعد بداية القصف، وإنه وصل الليلة السابقة إلى باكستان مع مجموعة صغيرة من أتباعه لمهمة ما. سألته عن كل شيء يرغب المرء في معرفته عن الطالبانيين، وكانت إجاباته جاهزة وحاضرة، ومحددة وموثقة سياسيا، مثلما كانت في وقت ما إجابات مفتش شرطة صيني أو أحد مقاتلي الفايكونج الفيتناميين.

كان يقول إن القنابل والصواريخ لا تخيفهم (بدؤوا بالفعل استخدام الهياكل الخارجية للصواريخ ليصنعوا منها مآذن للجوامع) وإن الحرب لن تبدأ بداية جدية إلا عندما تنزل القوات الأمريكية إلى البر، وإن الطالبانيين لن يمكن إبعادهم نهائيا من أفغانستان لأن "طالب معناه من درس في مدرسة، وفي كل عائلة أفغانية يوجد بالفعل الآن واحد مثلي". كان يقول إنه حتى لو تمكنوا من قتل الملا، الذى هو حاليًا قائد طالبان، هذا لن يغير أي شيء، لأن المجلس الأعلى للحكماء، الشورى، "مكون من ألف ملا عمر، وكل واحد منهم يمكنه أن يخلفه". كان يقول إن كل مدينة، وكل قرية بها لجنة محلية تُمثل الشورى، وإنها ستظل واقفة على قدميها، وستكون السلطة الحقيقية للشعب وأيضًا حتى لو اضطر الطالبانيون – في بعض مراحل الحرب – أن يتركوا أراضيهم للأعداء، ليعودوا مرة أخرى للهجوم عليهم. ربما كان يخدعنا، ولكن كان يبدو مقتنعا تمام الاقتناع.

الانطباع الذى تركه لى ذلك الرجل ليس أننى كنت أتحدث مع متعصب جاهل، متشبع بالخرافات مثل شباب الجهاد الذين قابلتهم خارج بيشاور؛ أولئك الذين كانوا يعتقدون أن القنابل الأمريكية ستوقفها قوى خارقة ستظهر فى السماء فى اللحظة نفسها. كانوا مغرورين، تحركهم الكراهية. أما هو فلم يكن كذلك. كان يعرف أن أسلحة الأمريكان "رائعة"، ولكن كان يقول فى نهاية الأمر إن السلاح الأشد قدرة هو سلاح الإيمان.

كان مُفكرًا، مطلّعًا على أخبار العالم، ومُدركًا ما يقوله. كان يبدو لى، أكثر من كونه مقاتلاً، راهبا فى أحد الأنظمة المحاربة، ربما كما كان فرسان المعبد بالنسبة إلينا فى زمن ما.

سألت أبا حنيفة، كيف يمكن أن يتجول بحريته فى باكستان، ذلك البلد الذى كان مرتبطا بشدة بنظام طالبان، ولكنه الآن انضم للفريق المناهض لهم، وأصبح حليفًا للولايات المتحدة. كيف تمكن، وهو الآن "عدو" فى الحرب ضد الإرهاب، أن يوجد هناك، فى إحدى مدن باكستان، وأن يتناول الشاى معى على الملأ؟

ضحك هو وضحك جميع المحيطين به. هذا هو الواقع: على الرغم من الاستنفار الرسمى فى الجبهة والموقف الدرامى للجنرال مُشرف بالانحياز إلى واشنطن، لكن باكستان تبقى فى الواقع ذات موقف متردد من الحرب. وحكومة إسلام آباد تعلم أن الباشتون، سواء أولئك الذين يعيشون فى أفغانستان، أم الذين يعيشون فى باكستان، يُعدان وطنًا واحدًا، وإثارة العداء بينهما تعنى المخاطرة بحرب أهلية بطوال الألفى كيلومتر على الحدود. وسيزداد الخطر، إذا انقسمت أفغانستان بصورة خاصة إلى جزأين، جزء مع حلف الشمال يسيطر على كابول، والمقاطعات الشمالية، والتى يسكنها فى كل الأحوال غير الباشتونيين، والباشتون الطالبان، المسيطرين على الجنوب.

تعرف إسلام آباد، على الرغم من عمليات التمشيط الأخيرة التى أرادتها واشنطن، أن الجهاز الداخلى للدولة الباكستانية، وخاصة ذلك الخاص بالقوات المسلحة والتجسس، مملوء بالعناصر التى ترتبط بطالبان برباط مزدوج: لقد حملوهم، وقاموا بضمهم إليهم، بل يتشاركون معهم فى الأيديولوجية والإيمان الدينى. من المؤكد أنها

ليست مصادفة أن الليلة نفسها التى قام فيها الجنرال مُشرف، تحت ضغط الأمريكيين، بالإعلان عن خلع رئيس المخابرات السرية، اشتعل حريق، ودمر كل الملفات الخاصة بالطالبانيين، بما فى ذلك تواريخ قادتهم والأوراق الخاصة بمواقعهم وكهوفهم.

ولو استطاع الأمريكان وضع أيديهم على تلك الوثائق؛ لباتت مطاردتهم لأسامة بن لادن والملا عمر أكثر بساطة بكثير. بالإضافة إلى ذلك؛ فإن مُشرف يعرف أن الحرب الأمريكية فى أفغانستان قد خلقت تعاطفًا كبيرًا مع الطالبانيين وأن أسطورة بن لادن "بطل الفقراء المقموعين"، "ورمز الثورة الإسلامية ضد غرور القوى العظمى الكافرة"، وإن كان هذا قد بدأ ينتشر بين الجماهير، ويمكن أن يتوجه فى أى لحظة من اللحظات ضده هو الذى أصبح الأصوليون يصفونه بالفعل بأنه كافر، وأنه "يأكل بالدولارات الأمريكية".

إن مجرد تحدى الولايات المتحدة صنع من بن لادن بطلاً شعبيا، وحيثما كنت تذهب فى هذين الأسبوعين كنت ترى صورًا كبيرة له تُباع فى أكشاك الصحف، وقد تجد صورة لوجهه فى الجزء الخلفى من الأتوبيسات، وزجاج السيارات الخاصة، وتم تعليقها على عربات الآيس كريم المتنقلة. وأصبحت شرائط الكاسيت المُسجل عليها أحاديثه تُباع فى البازارات.

حتى فى دوائر البرجوازية الأكثر ثراءً، تلك التى ترسل أبناءها للدراسة فى أمريكا، والمرتبطة اقتصاديا بالولايات المتحدة التى تدعم الرئيس مُشرف لأنه "لم يكن لديه خيار آخر والمسدس الأمريكى مصوب إلى رأسه"، سمعت عبارات تحمل الكثير من الكراهية المناهضة لأمريكا التى بدأت تظهر فقط منذ بضعة أشهر بشكل لا يُصدق. شرحت لى – بسخرية – سيدة أنيقة تتحلى بالجواهر، من علية المجتمع فى لاهور، فى أثناء حفل عشاء: "يوجد حاليًا أسامة صغير فى كل واحد منا".

كان أبو حنيفة هو من دفعنى للذهاب إلى لاهور، وقد شرح لى أن "مهمته" فى باكستان كانت الاشتراك فى الاجتماع الشهرى لجماعات التبليغ، وهكذا تبعته. على بعد ثلاثين كيلومترا من لاهور، فى سهل يُدعى رايويند لمدة ثلاثة أيام، اجتمع أكثر من مليون رجل (لم أر امرأة واحدة)، جاءوا من كل زاوية من باكستان، ومن أجزاء مختلفة

من العالم، والتقوا فى أسفل مظلة بيضاء جميعهم معًا، وفى سحابة ساكنة من الأتربة الصفراء تذروها الرياح، صلوا خمس مرات فى اليوم، واستمعوا إلى أحاديث الشيوخ، وأعادوا تأكيد ذلك الرباط الأخوى المسلم العجيب، والذى يصعب علينا، أحيانًا، نحن الغربيين، أن نفهمه؛ حيث إننا أصبحنا أكثر اعتيادًا على المفهوم "الفردى" وأقل على مفهوم "الجماعة".

والتبليغ هيئة غريبة، منظمة وقوية، كانت فى السابق مكونة من مبعوثين، إسلاميين، ليس لهداية غير المؤمنين ولكن لإصلاح المسلمين الذين سقطوا من الناحية الروحية تحت تأثير النزعة المادية الغربية. كل عضو من الهيئة يُكرس - مجانًا - أربعة أشهر سنويا لهذا العمل الدعوى. يسافرون فى أرجاء البلاد، فى مجموعات صغيرة، دون أن يقرءوا أبدًا الصحف ولا يشاهدوا التلفاز لكى لا يشردوا، ويعيشوا فى القرى الأكثر بُعدًا، ويعيدوا تعليم "طريق الله الأصلى" للناس.

من خلال عملهم هذا استطاعوا أن يصنعوا لأنفسهم شبكة ممتدة من العلاقات، وأصبح لهم الآن تأثير كبير، ليس فقط فى باكستان، ولكن فى مناطق مختلفة من العالم؛ حيث يوجدون. وكان سرهم أنهم يمكثون فى الظل. لا يبحث التبليغيون عن الدعاية، لا يريدون أن يكتب عنهم أحد، ولا يسمحون لأحد بتصويرهم أو صناعة أفلام عنهم، ولا يقوم قادتهم بالإدلاء بأى أحاديث صحفية.

يتمسك أعضاء جماعة التبليغ بأنهم لا يؤيدون استخدام العنف، وأنهم لا يرغبون فى ممارسة السياسة، ولذلك لا يوافقون على هذا، ويضطربون من الأصوليين أصحاب الأحزاب الإسلامية المتعصبة، التى تتظاهر هنا ضد الحكومة، وتؤيد علنًا أسامة بن لادن وطالبان. لكنه - بعد مرور ساعات كثيرة فى تلك المجموعة المحتشدة والمنظمة من الرجال، والذين يرتدون جميعهم العمم البيضاء والقلنسوات على رءوسهم، ويحركون سبحاتهم - بدا لى من الواضح أنه، على الرغم من كل الفروق البارزة بين جماعة التبليغ، وأسامة بن لادن، وطالبان، فإنه يوجد اتفاق فى الهدف والمصالح، ونوع من التضامن الضمنى. وهذا يمكن فهمه؛ لأنه إذا امتد فهو يشمل أيضًا، كل مسلم فى كل جزء من أجزاء العالم.

كان لأسامة قبل كل شيء هدف سياسي، تحرير الأراضي المقدسة للإسلام من وجود الكفّار، ومن العائلة الملكية التي تحكمها حاليا والتي يعّرفها هو "بالفاسدة". بكلمات أخرى، يريد أسامة أن يستولي على السلطة في المملكة العربية السعودية. وهدفه الثاني هو أن يعيد ذلك البلد، والذي يعرف رعاياه في باكستان شعبيا بأنهم مشغولون "بالجنس والكحول"، إلى شكل من أشكال الإسلام الأكثر نقاءً وروحانية.

نظرًا لأنه يرى الولايات المتحدة بوصفها حاميا للنظام السعودي الملكي، وأنهم هم من ينشرون الفساد في العالم الإسلامي بشكل عام، فقد أعلن أسامة جهاده ضد أمريكا.

ومع وجود الجانب السياسي لكل هذا فإن جماعة التبليغ ليس لديها سوى القليل لتفعله، أو ربما لا يكون لها دخل بكل هذا. ولكن تهتم كثيرا بالجانب الديني. فهم أيضًا يريدون عودة الإسلام الأكثر روحانية، ولذلك فهم يتعاطفون في أعماقهم مع أسامة ومع طالبان، ولكن هناك ما هو أكثر من ذلك.

إذن جماعة التبليغ، مثل عناصر كثيرة في العالم الإسلامي، ليست بالضرورة أصولية أو متعصبة، ولكن لها تطلعات أكثر شمولية وأكثر وجودية؛ ألا وهي، بكل بساطة، أن يعيشوا واقعًا مختلفًا عن واقعنا، أن يعيشوا طبقًا لمبادئ أخرى، وأن يظلوا خارج الآليات الدولية التي يرون أن القوانين والقيم ذات الطابع الغربي تحكمها بشكل حصري.

في الأحاديث التي أجريتها في هذين الأسبوعين مع الكثير من مختلف مسلمي باكستان، لاحظت إشارة مستمرة إلى نوع من العنف الذي يقول الكثيرون الآن إنهم ضحيته. السبب؟ المواجهة مع الغرب. سواء كان الحق معهم أم لا، فإن الكثيرين يرون العولمة وسيلة من وسائل "حضارتنا الملحدة والمادية"، والتي من خلال اتساع الأسواق أصبحت تزداد دائمًا ثرءًا وقوة على حساب عالمهم.

يرى المسلمون الأكثر ثقافة في هذا البلد أيضًا، بشيء من البارانويا، أي تحرك للغرب، بما في ذلك منح جائزة نوبل للآداب لنايبول، هجومًا على الإسلام.

من هنا جاء رد الفعل الدفاعي واللجوء إلى الإسلام كملجأ، أصبح الدين السلاح الأيديولوجي ضد الحداثة، التي أصبحت مثل تحويل العالم إلى النموذج الغربي. لهذا

أيضًا فإن المعتدلين مثل جماعات التبليغ، دون أى رغبة منهم فى أن يكونوا من المجاهدين، يجدون أنفسهم متعاطفين مع جماعة طالبان ومع أسامة فى نهاية الأمر بدلاً من التعاطف مع الغرب.

إن هذه هى المشكلة التي نواجهها؛ مشكلة لا يُمكن أن تُحل بالقنابل، ولن تُحل أيضًا بأن ندور حول العالم لنُسقط أنظمة لا تعجبنا لنستبدلها بملوك قدماء فى المنفى أو بتحالفات للتعايش المشترك تم اختيارها فى عاصمة بعيدة. يمكن أيضًا أن يُخرج الأفغان أسامة من جحره، ويمكن أيضًا أن يتم تفريق جماعات طالبان، وتحويله إلى قوة تُعشش فى الجبال، وتعمل على تكوين قوة محاربة جديدة، ولكن ستظل المشكلة الحقيقية قائمة، ولن تتسبب القنابل إلا في ازدياد حدتها.

بالنسبة إلينا يمكن أن يبدو هذا شيئًا غريبًا، ولكن يوجد الآن فى العالم اليوم عدد متزايد من الأشخاص الذين لا يتمنون أن يصبحوا مثلنا، والذين لا يتبعون أحلامنا، والذين ليست لديهم تطلعاتنا وآمالنا.

عندما قابلت أحد تجار النسيج ويبلغ من العمر ستين عامًا، فى تجمع مبعوثى التبليغ عبّر لي ببساطة شديدة: لا نريد أن نعيش مثلكم، لا نريد أن نشاهد تلفازكم، وأفلامكم، لا نريد حريتكم، نريد أن تحكم مجتمعاتنا الشريعة والقانون القرآنى، وألا يحكم اقتصادنا قانون الربح. عندما أبيع أنا فى نهاية يومى ما يكفينى لمعيشتى، أرسل الزبون الذى يأتى لى ليبتاع من جارى الذى أرى أنه لم يبع شيئًا.

نظرت حولى، تُرى هل يفكر كل هذا الحشد الضخم من الرجال - فى اليوم الأخير قال إنهم كانوا تقريبًا مليونين ونصف المليون- بالفعل مثلما يُفكر؟

كنت أشعر بالفضول، فقدت كل أثر لأبى حنيفة فى وسط الزحام، وسألت ذلك التاجر إذا كان بإمكانى أن أذهب لأزوره فى منزله. أعطانى العنوان. كان قد حضر من شامان، مدينة على خط الحدود، تمامًا فى وسط الطريق بين كيتا، عاصمة البوليستان الباكستانى، وقندهار، المركز الروحى للمُلا عمر فى أفغانستان، كانت شامان، عمليا، مغلقة أمام الأجانب، وكانت الطريقة الوحيدة للذهاب إليها هى فى قافلة تحرسها سيارات الشرطة وبإذن خالص يتم استخراجه من كيتا. وهكذا انتهى بى الأمر فى هذه اللوكاندة.

عندما سرت لأول مرة فى الطرقات لأتعرف على المنطقة، اكتشفت أننى بجوار مستشفى المدينة حيث يُنقل كل يوم المدنيون الذين يُصابون بالقنابل الأمريكية فوق قندهار. وهناك تعرفت على "عبد الواسع"، عمره عشر سنوات، أفغاني، ضحية صاروخ كروز، مُزِّقت قدمه". هكذا كُتب على ورقة مكتوبة بخط اليد وموضوعة على الحائط القديم خلف فراشه المتسخ والمترب. كان شاحبا جدا ورفيعا مثل الأنشوجة. كانت هناك "طوبة" معلقة بحبل إلى كعبه المُتدلى من آخر سريره؛ لتثبت القدم الموضوعة فى الجبس. وكانت القدم الأخرى، والتى كانت عظما يكسوه جلد، مثل فتيل القنبلة. كان عبد الواسع يلعب الكريكيت مع أصدقائه فى أحد المراعى عندما أصيبوا، ومات السبعة الآخرون. أحضره الأب إلى هنا مع أخ عمره ١٤ سنة، والذى يجلس معه الآن. أما الأب فقد عاد إلى أفغانستان.

المستشفى مزدحم، كل فراش يحكى قصة، ولكننى شعرت بأن فضولى ليس موضع ترحيب. ثم إنه ما فائدة معرفة المزيد عن كل هذا؟ ما فائدة معرفة أن صواريخ كروز التى قتلت كل أصدقاء "عبد الواسع"، وبترت قدمه، وكل البؤساء الذين يرقدون بلا حراك وفى صمت، فى ذلك المستشفى الإقليمى القذر، والذين يصلون إليه كالأمل العظيم فى نهاية يوم كامل من السفر، من حيث سقطوا بسبب "تحديد خطأ للموقع على الحاسوب"؟

كان علينا بكل بساطة التوقف عن إنتاج تلك الصواريخ.

ترحل القافلة المتجهة إلى شامان من كيتا، فى بعض الأحيان، فى الساعة العاشرة صباحًا. الفكرة هى إحضار مجموعة صغيرة من الصحفيين المكلفين بالتغطية فى موقع الجبهة، وأن يسمحوا لهم بالمكوث أقصى حد لمدة ساعتين لأخذهم مرة أخرى وإعادتهم إلى كيتًا. لا يريد الباكستانيون أن يجعلوا وسائل المواصلات الكثيرة التى تذهب إلى الحدود معروفة للجميع، ويُقال إن السلطات تُشجع صبية معسكرات اللاجئين لأن يقذفوا الزوار بالحجارة لكى يبعدوهم. أكره هذا النوع من الزيارات التى يقودها مرشد، وبمجرد أن وضعت قدمى فى شامان مع الطالبين، شعرت بالضياع.

كان السكان عدوانيين، ولم نستطع الوصول إلى منزل تاجر القماش الذى أردنا زيارته، أنقذتنا إحدى سيارات الإسعاف الصغيرة "عبد الستار إدهى"، "قديس" كراتشى، والتى تذهب لما وراء الحدود لتنقل المصابين. فى الظهيرة استطعت مقابلة

أحد وفود طالبان وسلمت إليه طلب زيارة قندهار فى اليوم التالى، ولكننى لم أستطع قضاء الليلة فى شامان، عثرت علينا الشرطة، وبعد بضع ركلات إلى الطالبين، وبعض الدبلوماسية من جهتى، أطلقوا سراحنا.

هناك أيضًا ساعدنا القدر، كنا فى طريق عودتنا إلى كيتًا، تتبعتنا عن قرب سيارة جيب تحمل قائدًا عسكريا، وسمح لى ثقب فى عجلة السيارة بأن أتوقف عند قمة خوجاك عشر دقائق، وبالتالى استطعت أن أشاهد منظرا عظيما لا يُنسى فى أفغانستان، بعيدًا عن تلك الصورة العبثية التى يحاول الغرب، وهو يفكر فى أمريكا، أن ينقلها لنا.

كانت الشمس قد غربت لتوها، وبدأ الهلال يتخذ لونًا ذهبيا فى السماء الزرقاء، فوق امتداد السهل الجبلى، كانت تظهر أحيانًا باللون الوردى وأحيانا أخرى باللون البنفسجى، أو اللون الأصفر البرتقالى، المظلل والحى. كانت مثل محيط تجمد منذ الأزل، فوق قمة قريبة، فرد عشرات من سائقى سيارات النقل سجادات الصلاة على الرمال ومثل ملامح سوداء من الورق أمام تلك المساحات الضخمة كانوا يميلون فى إيماءات إيقاعية تجاه الغرب، وهم يعرفون أن ملايين من المسلمين الآخرين فى تلك اللحظة نفسها يقومون بالإيماءات نفسها فى الاتجاه نفسه، بالفكرة نفسها متجهة إلى الإله نفسه الذى لا يمكن وصفه، ولكنه يوحد الجميع فى وحدة لا نستطيع نحن الوصول إليها.

عدت للتفكير فى الأحد الأخير لى فى فلورنسا، فى أعقاب الحادى عشر من سبتمبر، عندما قمت بجولة فى الكنائس فقط لأعرف ما كان يُقال هناك، لا شىء. وشعرت بالإحباط الشديد. من كنيسة سان ميناتو، إلى كنيسة الروح القدس، إلى كنيسة سانتا ماريا نوفيللا، كان كل الكهنة يقرؤون النص نفسه من الإنجيل، كان الجميع يلقى بالأحاديث العامة نفسها دون أن يشير ولو إشارة واحدة لما يحدث فى الحياة، ولا لمشكلات ومعاناة الناس لما يحدث فى العالم. هنا فى باكستان كل يوم جمعة تصدح أصوات المساجد بأصوات الأئمة، وأحيانا يهذون، ولكنهم دوما يجمعون المؤمنين، مانحين إياهم شيئًا ما، ربما أيضًا كان خطأ ليفكروا فيه، وليكرسوا أنفسهم له. أما لدينا فما زالت الكنيسة تؤثر الصمت بدلاً من أن تكسر خطوط الأعراف السياسية وأن تعلن بثبات صوتها المُبشر بالسلام.

كنت أشاهد التتالى اللانهائى للجبال تُظلم بسرعة، وكنت أتساءل كيف سيتمكن الأمريكيون من العثور فى تلك المتاهة القمرية على الكهف الذى يختبئ فيه أسامة؟ يُقال إنه توجد من الكهوف على الأقل ٨٠٠٠، ولكل منها نفق طويل يصل طوله أحيانًا بضعة كيلومترات، ذو مداخل مختلفة، ذات مستويات متنوعة. وحتى إن عثروا عليه، إن الحرب - كما تم الإعلان عنها - لن تنتهى أبداً.

عندما أفكر فى أوروبا من هذا الطريق بين جبال آسيا، أشعر أنها بعيدة جدا، تمامًا كما يبدو لى بعيداً جدا عن أوروبا كل ما يحدث هنا. لكن الأمر ليس كذلك. إن ما يحدث فى أفغانستان قريب جدا منا، ويخصنا. ليس فقط لأن سقوط كابول ليس هو بالمرة حلا لكل مشاكل أفغانستان، ولكن لأن أفغانستان "ليست سوى المرحلة الأولى". والأقرب منها العراق والصومال، والسودان.

ماذا سنفعل عندما يذهب بوش ليلقى بقنابله هناك؟ هل قمنا بالفعل بحساب أمر المسلمين الذين يسكنون فى وسطنا، والذين يمكن، الآن، أن يكونوا غير مبالين بالحرب فى أفغانستان، ولكن لن يحدث ذلك عندما تبدأ القنابل بالسقوط فوق منازلهم؟ هل نريد نحن أيضًا الاشتراك فى القتل على الطريقة الإسرائيلية لكل من ستقرر المخابرات الأمريكية أن تضعه فى قوائمها السوداء؟

سيكون من الأكثر حكمة - فى رأيى - أن ترفض أوروبا الآن ما يحدث وبدلاً من أن تترك حكوماتها المختلفة، لأن تقرر بشكل فردى أن تكون جزءا من "الأقمار الصناعية" التى تدور فى فلك واشنطن، أن تعبر عن نفسها بصوت واحد، وأن تساعد، بصفتها صديقة وحليفة حقيقية، أمريكا للعثور على طريق للخروج من الفخ الأفغانى.

منذ بضعة أيام كانت إحدى الصحف الأردنية تناقش باقتناع أن البلاد المختلفة التى تُشجع بطريقة أو بأخرى الأمريكيين بأن تذهب إلى أفغانستان، تفعل ذلك فى واقع الأمر على أمل أن يخفقوا هناك وأن يبدأ وضع مصداقيتهم كقوى عظمى محل النقاش. إن إيران والصين، وروسيا، وإلى حد ما باكستان أيضًا لديهم أسباب جيدة للحقد على الولايات المتحدة وأن يشعروا بالقلق الشديد بسبب هذا الوجود الجديد الحربى الأمريكى فى قلب وسط آسيا. وأوروبا ليست بأى حال من الأحوال فى هذا الموقف.

ولكن، على النهج نفسه، فإن أوروبا لا يمكنها أن تكون غير مبالية بالمرة أمام إمكانية أن تتبع الولايات المتحدة – خلف ساتر تلك الحرب الدولية ضد الإرهاب – مشروعا خاصًا بها وحدها لتحقيق نظام عالمي جديد يطمح بشكل حصرى فى تحقيق الصالح القومى الأمريكى فقط .

إن المجموعة القائمة حاليا على السلطة فى واشنطن، والمكونة بشكل رئيسى من محاربى فترة الحرب الباردة، وعلى رأسهم وزير الدفاع "رامسفيلد"، يجعل المرء يظن أن تلك المحاولة ربما تكون حقيقية. إن تلك المجموعة، المرتبطة بطريقة أو بأخرى بمصالح الصناعات الحربية، والتى دائمًا ما عارضت المعاهدات الخاصة بتحديد التسلح، وتطلب الآن زيادته، إنها تلك المجموعة التى دعمت ضرورة التفوق النووى الأمريكى، والتى قالت فى الماضى إن الأسلحة النووية صُنعت لكى يتم استخدامها ليس فقط لتبقى بلا فائدة فى المخازن.

مع نهاية الحرب الباردة واختفاء تهديد حقيقى، رأت أمريكا – بقلق – الإقلال التدريجى للإنفاق الحربى الأمريكى وصنعت المستحيل لتحديد عدو جديد يبرر تكهين الأسلحة القديمة، وإنتاج سلسلة كاملة من الأنظمة الحربية الجديدة "الذكية" لميادين القتال التكنولوجية الخاصة بالقرن الحادى والعشرين. وكان المُرشح الأول لدور "العدو" ذلك، هى كوريا الشمالية، حتى اكتشفوا أن البلد يعانى حرفيا من الجوع، وأنه من المحتمل جدا أن يتوقف عن تحديه للقوة الأمريكية. ثم جاء دور الصين، ولكن اتضح أنه من الصعب التمسك بأن بكين يمكن أن تهدد شيئا أكبر من جزيرة تايوان، نظرًا لأنها لا تمتلك حتى مدفعية طويلة المدى. عندئذ برزت افتراضية الإسلام "العدو" الذى لابد من الدفاع ضده فى الصراع الذى اخترعوه للتو "صراع الحضارات".

أثبتت مذبحة الحادى عشر من سبتمبر مصداقية وجود ذلك العدو، وسمحت لأمريكا بأن تبدأ سياسة جديدة تمامًا، لم تكن مقبولة فى الظروف العادية. الآن تم تجسيد العدو فى "الإرهابيين" وبدأت عملية تحويلهم إلى رموز الشر لأولئك الذين عرفتهم واشنطن كذلك. وكان أول من دفع الثمن هم الطالبان والمجاهدون السابقون وأسامة بن لادن، وهم من كانوا، كى لا ننسى، صنيعة أمريكا نفسها، عندما كانت فى حاجة إليهم لتحارب بهم الاتحاد السوفييتى.

لا يمكن لأوروبا أن تتبع أمريكا فى هذا الطريق دون أن تتوقف لتتأمل وتفكر، لابد أن تفكر أوروبا فى تاريخها، فى خبرتها الخاصة فى الاختلاف بهدف أن تحصل على قوة للحوار، وليس من أجل تصادم حضارى.

إن عظمة الثقافات تكمن أيضًا فى قدرتها على الاستيعاب، يكفى ألا يواجه أحدنا الآخر بضربات طائرات تحمل مدنيين أبرياء وقنابل تتساقط، حتى على سبيل الخطأ، على من لا ناقة له ولا جمل فى كل هذا.

إن الإسلاميين المتعصبين أيضًا مثل الطالبان، بطريقتهم، يمكنهم أيضًا أن يتغيروا، ربما إذا كان قد تم الاعتراف بهم كونهم حكومة شرعية عام ١٩٩٦م، عندما استولوا على السلطة لكانت تماثيل بوذا فى باميان قد ظلت فى مكانها، ولم يرحبوا، كما فعلوا، بوجود أسامة بن لادن. إن الطالبان أيضًا يعيشون فى العالم، ولابد لهم، بطريقتهم، أن يتكيفوا.

عندما ذهبت إلى القنصلية الأفغانية فى كيتّا لأطلب الإسراع فى إجراءات إذن الدخول إلى قندهار، كان يوجد فوق مكتب الدبلوماسى الطلبانى الذى استقبلنى، حاسوب حديث. ربما كان يتابع على الإنترنت الأخبار الأخيرة عن بلده ليستطلع كم سيتبقى له فى منصبه، نظرًا لسقوط كابول.

فى طريق عودتى إلى الفندق، توقفت فى المستشفى لأزور عبد الواسع. كان الممر مزدحما بالأفغان الذين وصلوا لتوهم ومعهم مصابون جدد. فى الفراش المجاور لعبد الواسع يوجد الآن رجل فى نحو الخمسين من عمره وبطنه قد تمزق من إحدى القذائف. رآنى وأنا أدخل وأعطى لعبد الستار بعض الأشياء التى أحضرتها له. استجمع أنفاسه بصعوبة وصرخ: فى البداية تأتون لقصفنا بالقنابل، ثم تأتون لتحضروا لنا بعض البسكويت. عليك أن تخجل من نفسك.

لم أكن أعرف ماذا أفعل، أبحث بداخلى عن مبررات، عن كلمات لأقولها. ثم أفكر فى الجنود الفرنسيين والألمان والإيطاليين، والذين سرعان ما سينضمون إلى هذه الحرب، وأدرك أنه، فى نهاية حياتى رأيت فيها جرحى وقتلى أسقطهم آخرون، ما زال أمامى أن أرى فى هذا المستشفى وفى أماكن أخرى، ضحايا قنابلى أنا، ورصاصى أنا وأشعر بالفعل بالخجل.

رسالة من كابول

بائع البطاطس وقفص الذئاب

كابول، ١٩ ديسمبر ٢٠٠١م

كان المنظر رائعًا، أجمل منظر يمكنني تخيله. في كل صباح أستيقظ في كيس النوم المفرود على الإسمنت وعلى بعض اللوحات البلاستيكية لغرفة كبيرة فارغة تقع في الدور الأخير لأعلى مبنى من وسط المدينة، وعيناي تمتلئان من كل ما حلم به دائمًا كل مسافر جاء إلى هنا؛ التاج الأسطوري للجبال التي رآها في يوم من الأيام إمبراطور مثل بابُر(*)، أبو المغول، وأصابه الحنين ما تبقى من حياته، وتمنى أن تصبح قبرًا له. على ضفتي الوادي الذي يعبره النهر وُلدت المدينة التي عنها كتب أحد الشعراء، وهو يلعب على مقطعين من كلمة كابول بالإيرانية، قائلاً: منزلي؟ ها هو: قطرة من الندى بين أوراق وردة. والبازار القديم للبوابات الأربع حيث، كما يقولون، من الممكن العثور على كل فاكهة من فواكه الطبيعة وكل عمل يدوي. جامع بُل خشتي(**)، وضريح تيمور شاه، ومزار الملك ذي السيفين(***) الذي بني لتكريم القائد المسلم الأول في القرن السابع والذي استمر، على الرغم من أنه فقد رأسه المبتور بالسيف، - تبعًا للأسطورة- في المحاربة بسلاح في يده، مصرًا على فرض الإسلام، ذلك الدين الجديد الذي وُلد

(*) الإمبراطور ظهير الدين محمد بابُر (١٤ فبراير ١٤٨٣م - ٢٦ ديسمبر ١٥٣٠م)، مؤسس الدولة المغولية في الهند. (المراجع)

(**) مسجد بُل خشتي هو أكبر مسجد في كابُول في أفغانستان. يقع في منتصف مدينة كابُول القديمة، وقد تم تشييده في نهاية القرن الثامن عشر وتم توسعته في عهد الملك محمد ظاهر شاه في نهاية عام ١٩٦٠م (المراجع)

(***) شاه دو شمشيره (الملك ذو السيفين): ينسب لأحد الصحابة الذين فتحوا كابول وبه ضريح يقصده الناس، تم بناؤه على أنقاض معبد بوذي آنذاك، وقد نسج حوله العديد من القصص منها أن هذا الصحابي كان يجاهد في سبيل الله فأصيب في أثناء الجهاد وقطع رأسه ولكنه استمر مع ذلك في الجهاد وهجم على جيش الكفار دون رأس وهو يحمل سيفين في كلتا يديه حتى هزم جمع الكافرين ونال الشهادة بعد أن ظهرت له هذه الكرامة؛ لتؤكد أنه من أولياء الله الصالحين، ويقال بأن المسجد منسوب إلى الصحابي ليث بن قيس بن عباس الذي شارك في فتح كابول حاملا بيديه سيفين شق بهما جيش الكفار حتى نال الشهادة في موقع المسجد ودفن في موقعه وبني عليه مسجد يزوره الناس ويتبركون به حتى يومنا هذا. (المراجع)

للتو فى الجزيرة العربية، على شعب كان يسكن هنا، منذ أكثر من ألف عام، وسعيد بكونه هندوسيا وبوذيا، ثم، فى أعلى تقع قلعة بالا هيسار، شامخة فوق قشرة الصف الأول من التلال، تمامًا أمام زجاج نافذتى والتى فى مقرها ملك كل المنتصرين وفى كل دهاليزها عانى أو قُطعت رقبة كل المهزومين فى التاريخ الأفغانى.

المنظر رائع، ولكن منذ أن وصلت، منذ أكثر من أسبوعين، وفى جيبى خطاب تقديم لشيخ مُفكر، وفى حقيبتى مكتبة صغيرة من الكتب الرفيقة للرحلة، وفى صدرى خليط من الغضب والأمل، يمنحنى هذا المنظر سلامًا. لا أستطيع أن أستمتع به لأننى لم أشعر قط، مثلما كنت أشعر من هذه النافذة المتربة، بما كان يشبه الألم البدنى، بجنون القدر الذى يبدو أن الإنسان، باختياره الحر، قد صوت له، فهو يبنى بيد، ويهدم بالأخرى، بالخيال يمنح الحياة عجائب كبرى، وبالدقة والشغف نفسهما يصنع حول نفسه صحراء ويقتل من هم مثله.

إن عاجلاً أم آجلاً لابد أن يغير هذا الإنسان طريقه ويتخلى عن العنف والرسالة واضحة، يكفى النظر إلى كابول، عن كل ما تحكى عنه كتبى لم يعد هناك سوى الحطام، فالقلعة أصبحت أنقاضا، والنهر أصفر كريه الرائحة من الفضلات والقمامة، البازار امتداد من الخيام والأكواخ والمخازن، الأضرحة والقباب والمعابد دُمرت، ومن المدينة القديمة المصنوعة ببيوتها الخشبية المرصعة والطين لم يعد موجودا، أحيانًا على شكل خطوط تمتد مئات ومئات من الأمتار، سوى أعمدة صفراء اللون تثير الشفقة مثل قصور الرمال التى يبنيها الأطفال وسرعان ما تغرقها الأمواج.

العديد من الآثار قد اختفت بالفعل. إن منارة شاكارى(*) الساحرة، العمود المنير، والذى بُنى خارج كابول على الطريق القديم لجلال آباد فى القرن الأول الميلادى، ربما لإحياء ذكرى استنارة بوذا، لم يقاوم طلقات المدافع ومنذ عام ١٩٩٨م، لم يعد سوى تراكم حزين لحجارة قديمة.

(*) تقع منارة شاكارى على بعد ١٥ كيلومترا إلى الجنوب من كابول وهى عبارة عن عمود بوذى من الحجر له قاعدة قطرها ٢٠ مترا ويرتفع ٢٧ مترا، بنى ما بين القرنين والأول والثانى الميلادى وتم تدميره عام ١٩٩٩م. (المراجع)

لم تعد كابول – بأى معنى – مدينة، ولكنها أصبحت جحرا ضخما للنمل الأبيض، يحتشد فيه البؤس الإنسانى. أصبحت مقبرة هائلة مترية. كل شيء تراب، ويزداد لدى الانطباع أنه فى التراب الذى يغطى دائمًا يدى، ويملأ أنفى، ويتغلغل إلى رئتى، فى هذا التراب يوجد كل ما تبقى من العظام ومن المبانى، من المنازل والحدائق، من الأزهار والأشجار والتى كانت فى يوم من الأيام تصنع من هذا الوادى مكانًا كالفردوس. كانت كابول تفتخر بوجود سبعين نوعًا مختلفًا من العنب، ثلاثة وثلاثين نوعًا من أزهار التيوليب، سبع حدائق ضخمة تغطيها أشجار الحمضيات. لم يعد هناك أى شيء على الإطلاق. ولم يحدث هذا بسبب لعنة إلهية، وليس بسبب اندلاع أحد البراكين، أو فيضان أحد الأنهار، أو أى كارثة طبيعية أخرى. انتهى الفردوس مرة ثم مرة أخرى، ثم مرات أخرى بسبب وحيد لا غير؛ الحرب. حرب الغزاة منذ قرون مضت، حرب القرن الثامن عشر، وفى بداية القرن الماضى والتى أحضرها الإنجليز إلى هنا، والذين الآن، بطريقة أكثر تهذيبًا، أرادوا العودة إليها على رأس "قوى حفظ السلام"، وحرب السنوات العشرين الأخيرة، تلك التى اشتركنا فيها جميعًا بطريقة أو بأخرى، ربما فقط بمجرد بيع الأسلحة إلى أحد مقاولينا، والآن الحرب الأمريكية حرب باردة للآلات ضد الرجال.

ربما كان السن ما جعلنى أُصاب بنوع من الحساسية الهيستيرية ضد العنف، ولكن حيثما ألقى نظرى أرى ثقوبًا تسببت فيها طلقات النيران، شظايا القذائف، الآثار السوداء لانفجارات، ولدى الانطباع أننى الآن، ممزق ومشوه ومحترق. ربما أكون قد فقدت، إذا كان لدى من قبل، تلك الموضوعية للملاحظ غير المتورط، أو ربما تكون فقط ذكرى جزء من دعاء كان يتلوه غاندى فى صلاته اليومية، طالبًا أن يتمكن من "تخيل معاناة الآخرين" ليتمكن من فهم العالم، ولكننى حقًا لا أستطيع أن أكون منفصلاً وكأن هذه القصة شيء لا يخصنى.

من فوق، من نافذتى أرى رجلاً يسير ببطء، وينظر للخلف باستمرار إلى امرأة شابة تعرج خلفه، وقد فقدت إحدى قدميها. ربما كانت ابنته. أنا أيضًا لى ابنه، وفقط الآن، وللمرة الأولى، أفكر أنها ممكن أن تسير فوق لغم ينفجر فيها. البرد الآن يشق الجلد، وأرى مجموعات من الأطفال المتسولين يشعلون النار بأكياس وقطع من

البلاستيك التى عثروا عليها فى أكوام القمامة، لدى حفيد فى هذا العمر وأتخيله وهو يتنفس هذا الهواء الملوث والمسرطن ليتدفأ.

بعد أيام من البحث استطعت أخيرًا العثور مرة أخرى على الشيخ الذى معى له خطاب توصية، الحارس السابق لمتحف كابول. عثرت عليه فى بازار كارت آريانا؛ حيث يقوم الآن، ليعول أسرته، ببيع البطاطس. كان يمكن أن يحدث هذا لى أنا أيضًا، بل ما زال يمكن أن يحدث لأى منا بسبب حرب ما.

حكوا لى أنه فى أثناء أكثر فترات الحرب قسوة، بين أعوام ١٩٩٢م و ١٩٩٦م، عندما وصلت فرقة الحلفاء نفسها من الشمال، والتى تحكم الآن كابول، ولكن آنذاك صنعوا من تلك المدينة حقل صراعهم، ومذبحتهم (بلغ عدد القتلى من المدنيين خمسين ألفًا)، وكانت الحاويات الحديدية الضخمة تصل عن طريق البحر، ثم عن طريق باكستان، مملوءة بالأسلحة والذخيرة الأمريكية من أجل الجهاد ضد الاتحاد السوفييتى، كانت مجموعات المجاهدين تستخدمها سجونا لأعدائهم، وأحيانًا، للانتقام منهم، كانوا ينسون المساجين بداخلها، وأحيانًا أخرى كانوا يشوونهم فى الداخل بأن يشعلوا النيران في خزانات البنزين ويضعونها حولها. لا أعرف إذا كان هذا قد حدث بالفعل، ولكننى لا أستطيع النظر إلى تلك الحاويات، وتوجد منها هنا الآلاف فى كل مكان، وقد تمت إعادة استخدامها مساكن ومحلات وورشا، دون إعادة التفكير فى تلك القصة.

كل شىء، وكل جدار، وكل وجه عليه علامة، على ما يبدو لى، من هذا العنف البشع الذى تسببت فيه، وما زالت تتسبب - الآن فى هذه اللحظة وبينما أكتب - الحرب.

لم يعد الفجر، فى أعقاب ليلة بلا نوم بسبب الأزيز المستمر للبى- ٥٢ التى تعبر على علو مرتفع، يثير البهجة فى كابول. تبدو الشمس وكأنها حريق خلف مانع الرياح الذى تصنعه الجبال والتى تبقى طويلاً، وكأنها خط من الأوراق الداكنة فى مواجهة الأفق. يحدث أحيانًا، بينما لا تزال المدينة كلها غارقة فى الظلال، تشتعل طلقة بى- ٥٢ واحدة فجأة مع الأشعة الأولى الذهبية، وتصبح مثل طائر غامض وقلق ينوى أن يكتب بشفراته الأربع النيرانية رسائل موت غريبة فى السماء السوداء - الزرقاء.

إن طلقات البى-٥٢ ليست هنا فقط لتقصف مخابئ رجال بن لادن أو القاطرات التى يشكّون أنها تُخبئ الملا عمر، إنها هنا لأنها تُذكر الجميع بأنهم رجال الشرطة الجدد، بأنهم القضاة الجدد، والسادة محركو العرائس الجدد لهذا البلد. إن عرض رفع العلم الأمريكى الذى تم تقديمه يوم الاثنين الماضى، يوم العيد الإسلامى الكبير، عيد الفطر، فى نهاية رمضان، تم تقديمه فقط ليقولوا هذا، وذلك مع فرقة المارينز الأمريكى وهى تنشد "ليحفظ الله أمريكا"، والأحاديث المتعلقة بذلك، عامود الشرف، والارتفاع البطىء - بل البطىء جدا - للعلم ذى النجوم والخطوط على الصارى فى الحديقة. فتحت مختلف التمثيليات الدبلوماسية أبوابها مرة أخرى فى كابول، قام الدبلوماسيون الإيرانيون، والأتراك، والفرنسيون والصينيون، الإنجليز والإيطاليون الذين أزالوا الغبار من فوق مكاتبهم وأخرجوا أعلامهم من أسفلها، ولكن لم يفعل أحد من هذا الإجراء الروتينى حدثًا كبيرًا مثلما صنع منه الأمريكيون.

للأمريكيين نوع من الاستحواذ بالعلم، إن العلم الذى وضعوه فوق سفارة كابول، هو الذى أخفضوه عام ١٩٨٩م، لكنه لم يكن الأول الذى قامت الولايات المتحدة بإعادة تثبيته على الأرض الأفغانية. كان ذلك هو الذى رفعه المارينز فى قاعدتهم فى ضاحية قندهار فى بداية الحملة العسكرية. لقد تم تدشين قاعدة "حقل العدالة والعلم"، وللإيضاح فإن "العدالة" فى هذه الحالة المقصود بها أساسا "الانتقام"، وقد حمل العلم توقيعات أقارب من سقطوا ضحايا البرجين التوأم.

ليس لدى الأفغان أى صعوبة فى فهم هذا النوع من الأشياء، عام ١٨٤٢م تم تسوية البازار الكبير ذى الأبواب الأربعة، والمزين بالتصميمات المشهورة على الحوائط والمزين بالورود، بالأرض والاستيلاء على ما به من قبل القوات الإنجليزية للانتقام من قتل اثنين من مبعوثى لندن، والإبادة التالية، من قبل الأفغان، لحملة مكونة من ١٦٠٠٠ رجل وموظف فى طريقهم من كابول إلى جلال آباد: لم يبق على قيد الحياة سوى طبيب واحد ليحكى ما حدث. فى عام ١٨٨٠م كان الإنجليز مرة أخرى، بعد أن شنق ٢٩ من قادة الأفغان لثورة جديدة مستقلة، على وعد بأن يسووا بالأرض جزءًا من بالا هيسار، لأنه - كما كتب أحد جنرالات صاحبة الجلالة والذى قاد العملية - "هكذا تتبقى بقايا ذكرى لا تُمحى تشهد بأننا نعرف كيف ننتقم لرجالنا".

بهذا النوع من "الذكريات"، والتى يمكن أن يحيل إليها الكثير من الآثار وأسماء الشوارع والضواحى فى كابول اليوم، كان من المؤكد سيكون من الصواب، من قبل ذلك الكيان الكبير الذى يُعرف "بالمجتمع الدولى" - والذى فى الحقيقة يبدو على الأكثر نادياً تستخدمه وتستهلكه الولايات المتحدة - أن يعهد بقيادة "قوات حفظ السلام" إلى بلد لا يكون، مثل إنجلترا، يتماهى هنا مع الاستعمار والعنف ورقم قياسى ليس موضع فخر، كان القصف الجوى الأول فى التاريخ والذى كان ضحاياه من المدنيين، كان قصف القوات الجوية الإنجليزية لكابول سنة ١٩١٩م

منذ قرون سابقة عرف الأفغان انتقاما آخر، ترك أثرا أكبر فى الذاكرة. فعند عبوره على سهل باميان عام ١٢٢١م، رأى جنكيز خان حفيده يموت، بعد أن أصابه سهم أفغانى، وأمر ألا يُترك أى أثر للحياة فى ذلك الوادى. ولأيام كثيرة أخذ الجنود المغول يذبحون كل رجل وامرأة، طفل وحيوان حتى - كما يُقال - فقدت السيوف أنصالها وأنهكت أذرعتهم، ثم قلعوا كل شجرة ونزعوا كل النباتات من جذورها. وهكذا ولمدة مئات الأعوام أخذت تماثيل بوذا الضخمة المحفورة فى الصخور، والتى تم انتزاع الذهب الذى كان يغطيها يومًا ما، تنظر بأعين فارغة إلى الوادى... فى انتظار أن يقوم محاربون آخرون - وفى هذه المرة كان الطالبان مسلحين بالبازوكا - بإزالتها لينتقموا، ربما من "المجتمع الدولى" والذى كان يرفض، على الرغم من كل الدلائل، الاعتراف بهم على أنهم الحكام الشرعيون لأفغانستان.

جاء الآن الوقت على طالبان ليصبحوا ضحايا الأمريكيين الذين يرغبون فى الانتقام لأمواتهم، وبالأخص، يريدون أن يعطوا للعالم فكرة عن قوتهم (عدم القدرة على المساس بهم). واقع أن الطالبان لم يكونوا هم المسئولون بطريقة مباشرة - وربما أيضًا غير مباشرة - عن قتل هؤلاء، لم يعد له أى أهمية. هكذا أيضًا لم تعد هناك أى أهمية لواقع أن الأفغان، والذين لم يكن لهم بالتأكيد أى دخل فى مذبحة البرجين التوأم، هم أول من دفع ثمن ذلك الانتقام.

إن هذه الحرب يتابعها مئات من الصحفيين، فهى أكثر حرب قد تم تخصيص ورق صحف وساعات بث تليفزيونية من أى حرب سابقة لها، إلا أنها حرب، استطاعت الولايات المتحدة بإصرار شديد على أن تبقيها غير مرئية ولن تعلن أبدًا عن الحقيقة الخاصة بها بأكملها.

توجد فى هذه الحرب أسئلة ترفض الولايات المتحدة الإجابة عنها، ولهذا لم يعد أحد يطرح المزيد من الأسئلة. إليكم بعضًا منها: كم عدد الضحايا المدنيين - الأبرياء بالتأكيد - حتى هذه اللحظة الذين قتلهم القصف الأمريكى؟ فى رأيى أكثر بكثير بالفعل من ضحايا البرجين التوأم.

كم عدد الضحايا بين المحاربين من طالبان؟ فى رأيى، أكثر من عشرة آلاف. الدليل الوحيد الذى لدى صغير ولكنه مهم. قبل أن آتى إلى أفغانستان مررت مرة أخرى على بيشاور وعدت إلى المقاطعة الباكستانية التى يسيطر عليها الإسلاميون الأصوليون، حيث قابلت - فى أعقاب القصف الأول مباشرة - الشباب الذين رحلوا متحمسين إلى الجهاد. ورأيت مرة أخرى أحد الذين استطاعوا العودة: منهزمًا. كان يحكى قائلاً، إن القصف الجوى المستمر لطائرات البى-٥٢ كان مرعبًا وقاتلاً. كان قد ذهب مع رفاقه لمحاربة الأمريكيين ولكنه لم ير حتى ظلالهم. سمع فقط أزيز الطائرات، المرتفعة جدا، فى السماء، ورأى النتائج المدمرة لقنابلهم حوله: رجال قد تمزقوا تمامًا، وآخرون جرفهم الانتقال المخيف للهواء، وكانوا يموتون والدماء تجرى من آذانهم وأنوفهم. ومن مجموعة عددها ثلاثة وأربعون لم ينج سوى ثلاثة. إذا كان هذا قد حدث حيث حاول طالبان أن يقاوموا وأن يتمسكوا بالسيطرة على المنطقة، كما فعلوا لمدة أسابيع فى قندهار فإن خسائرهم لابد وأن تكون كبيرة جدا.

دون أى دفاع مضاد للطائرات، مُقيدين فى مواقع محددة، فى حفر بدائية وقلاع صغيرة من الطين، ظلت حركة طالبان تحت رحمة القصف غير المنقطع للسلاح الجوى الأمريكى. لم يحدث قط فى تاريخ الحروب وقوع حرب غير متكافئة بهذا الشكل، حرب كان فيها عدم تكافؤ الخسائر واضح بهذه الطريقة: لقد أسقطت الولايات المتحدة الآلاف المؤلفة من الضحايا، ولم يدفع أى من قواتها الثمن. غير أن هذا لم يغير للشاب الجهادى الذى قابلته رؤيته للحياة، ولم يضعف إيمانه الأعمى بالإسلام، ولم يَقُدْه هذا لأن يقلل كرهه للغرب، ولم يؤد ذلك لأن يُعجب بالأمريكيين أو بتفوقهم العسكرى. لم يحدث أى شىء من هذا فى واقع الأمر. كان يقول: أذرعنا لا تكفى للوصول إلى الأمريكيين فى طائراتهم. لذلك سيقرر الله ماذا يفعل بشأنهم. كونه قد أصبح غازيًا - مقاتلا جهاديا- أصبح يمنحه الآن مقامًا رفيعًا فى قريته وفى الهيئة الأصولية

الإسلامية والتى يريد أن يستمر فى طاعة أوامرها. سألته: وإذا كان الأمر هو أن تذهب لتضع قنبلة فى نيويورك أو فى أى مكان آخر؟ أجابنى دون تردد: سأفعل ذلك. فى هذه السلسلة الشريرة من العنف، أى نوع آخر من "الانتقام" يمكن أن يدركه صبى مسلم، غير متعلم وبليد، فى قرية من الطين فى آسيا ضد قائد طائرة من طراز بى-٥٢، والتى فى نظره، قتلت مئات من رفاقه؟

إن الإرهاب الذى وقع الأمريكيون ضحيته فى نيويورك وفى واشنطن نشأ بسبب هذا الموقف غير المتوازن الذى بدأ مع بداية الحرب الباردة. طوال الفترة التى كان العالم فيها ذا قطبين، وكان التهديد المتبادل بالهجوم النووى كان يشغل تمامًا القوتين العظميين، الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة، لم تكونا تستطيعان السماح لنفسيهما بأن تتجولا حولهما فى العالم لفعل ما يريدان. إن آجلا أو عاجلاً سيصل أحدهما على حدود خاصة بالآخر، ولابد له أن يتوقف. لم يعد الأمر كذلك الآن، وأصبح فى إمكان الولايات المتحدة اليوم، بترسانتها الحربية الحديثة، التدخل فى أجزاء مختلفة من العالم، وخاصة تلك الفقيرة، يمكنها أن تسمح لنفسها ببعض العنف، واثقة من أنه لا يجب توقع أى تبادل متساو. إن الولايات المتحدة، حاملة معها الحرب إلى أفغانستان اليوم، وغداً إلى السودان أو إلى الصومال، إلى العراق أو إلى سوريا، لن تخاطر بأى شىء. لن تخاطر إلا برد فورى غير متكافئ: الإرهاب.

إن الطريقة التى قرر بها الأمريكيون التصرف تجاه هجمات نيويورك وواشنطن لن تحل المشكلة، ولكنها ستثيرها أكثر، إذ إنها تؤكد عدم تكافؤ العلاقات. عندما فكر الأمريكيون فى حماية أنفسهم، جعلوا الجميع أكثر ضعفًا والحياة كلها على الأرض أكثر خطرا وأقل متعة.

سؤال آخر لم يتم طرحه بشأن الحرب التى يقودها الأمريكيون فى أفغانستان: ماذا حدث لمئات العائلات من العرب الذين أتوا هنا للحرب، لحساب الأمريكيين، ذلك الجهاد ضد السوفييت، ومكثوا بعد ذلك هنا لاتباع أسامة بن لادن؟ إن المنزل المجاور لمنزل "بائع البطاطس" الذى أعرفه، كانت تسكنه مجموعة من العائلات من هذا النوع. وقال لى: "كان هناك العديد من النساء وعلى الأقل عشرة أطفال. فى إحدى الليالى رحلوا جميعًا فى سيارات نقل، أين هم الآن؟"

كان الشاب الجهادى الصغير الذى قابلته خارج بيشاور يحكى لى أنه فى أثناء العودة تجاه باكستان، عبر منطقة حول طورا بورا رأى بعض المحاربين العرب يذهبون إلى الفلاحين الباشتون فى المنطقة وهم يتوسلون إليهم بأن يأخذوا معهم زوجاتهم وأبناءهم، وأن يعدوهم بأن يعتنوا بهم. مثلما حدث لبعض الأطفال اليهود الذين تُركوا للفلاحين الآريين لكى ينجوا من الموت أمام الغارات النازية. ما ذنب هؤلاء الناس؟ من سيهتم بهم؟

إن ضحايا هذه الحرب ليسوا هم فقط أولئك الذين ماتوا بالفعل تحت القصف، ولكن أولئك الذين سيلقون حتفهم فى الأشهر القادمة لأن القنابل والألغام الأمريكية قد قللت من حجم المناطق الزراعية فى أفغانستان، القليلة بالفعل، وأولئك الذين يسقطون موتى الآن بالعشرات كل يوم، لأنه من سخرية السلوك الحربى أن يمنع قصف القنابل المستمر لأشهر عديدة عمليات تسليم الطعام الضرورية التى يقوم بها برنامج الغذاء الدولى، التابع للأمم المتحدة، والذى تديره الآن سيدة أمريكية.

يوجد فى هذه اللحظة مئات الآلاف من الأفغان (٢٥٠,٠٠٠ فى مسلخ فقط، بالقرب من هيرات) والذين لكى يهربوا من قصف الولايات المتحدة الأمريكية، انتهى بهم الأمر فى مناطق بعيدة من البلد حيث يستحيل، فى هذا الموسم وبسبب الثلوج، إيصال الطعام لهم) ولهذا يموتون بالفعل جوعًا ويخاطرون بالموت فى حشود. ولكن مأساتهم تحدث الآن دون أن يلحظها أحد، تسبب الاضطراب فى الإطار الإيجابى الذى ينوى المتحدثون باسم التحالف الدولى ضد الإرهاب أن يقدموه للعالم، وفيما عدا بعض الموظفين الجسورين والمتمردين للأمم المتحدة، لا أحد يتحدث عن هذا الموضوع، لا أحد يجرؤ على ذلك. إذا أثار أحدهم أى شك فإن الرد أصبح ردا واحدًا باستمرار، تذكروا الحادى عشر من سبتمبر. وكأن أولئك الضحايا يمكنهم أن يبرروا كل شىء، وكأن تلك الحيوات مختلفة عن حيوات الآخرين، وأنهم أكثر أهمية وقيمة منهم، أكثر بكثير.

إن نوعًا من العنف ينتج عنه نوع آخر، فقط عند إيقاف هذه الدائرة يمكن أن يعود الأمل فى حل ما، ولكن لا يبدو أن أحدا مستعد لأن يقوم بالخطوة الأولى. من بين الهيئات غير الحكومية الكثيرة التى تحتشد الآن فى أفغانستان لتجلب، بنقود

الحكومات المختلفة، نسختهم الخاصة من الإنسانية والمساعدات، لم أسمع عن واحدة تنوى أن تأتى إلى هنا لتعمل على المصالحة، أو أن تقترح منع العنف، وأن تساعد الأفغان على التأمل – وربما أيضًا تساعد الآخرين– فى عدم جدوى الانتقام. يا إلهى! كم نحن بحاجة لهذا! نادرًا ما عثرت على بلد مثل هذا مشبع بالعنف، بالعدوان، بلد يميل إلى الحرب بهذه الطريقة. حيثما أذهب أشعر بالكراهية. يكره الطاجيك الباشتون، والأوزبيك يكرهون الطاجيك، ويكره الباشتون الأوزبيكى والجميع يكرهون الهزارا، والذين يراهم الجميع حتى الآن سلالة القبائل المغولية – واسمهم يعنى "بالألوف"– وورثة جنكيز خان.

كنت دائمًا أعتقد أن المعاناة هى معلمة الحكمة، وفى طريقى إلى أفغانستان اعتقدت أننى سأجد نفسى، بعد كل هذه المعاناة، فى أرض خصبة مستعدة للتفكير فى عدم العنف والالتزام بالسلام، لم يكن الأمر كذلك بالمرة! ولا حتى هناك حيث سيكون الأمر أكثر وضوحًا.

إن قسم العظام للجنة الدولية للصليب الأحمر هو أحد أكثر الأماكن المؤثرة فى كابول، مركز مكثف للألم والأمل يديره طبيب من تورينو خجول وكفء، "ألبرتو كايرو" وهو الشخص الوحيد فى المركز الذى يتمتع بذراعين وبقدمين. جميع الآخرين من مرضى وموظفين، وأطباء وتقنيين، ينقصهم شىء ما. حتى عامل النظافة فقد إحدى قدميه. يقول الرجل الذى يصحبنى: إن العمل هنا يفيدنا لكى نشعر بأن لنا فائدة ويفيد من يصل إلى هنا، عندما يفقد جزءا من جسده، بأن يرى أنه من الممكن الاستمرار فى الحياة. كان مترجمًا. فى أحد الأيام، وفى أثناء عودته إلى منزله على دراجته، أصابه أحد قناصة تحالف الشمال برصاصة فى وسط قدمه، ممزقة إياها من فوق الركبة. وعلق وهو غارق فى التفكير: إذا لم يكن قد مات، لابد وأنه قد عاد إلى هنا إلى كابول. سألته: وهل سامحته؟ أجابنى: لا لا، إذا استطعت سأقتله بيدى. وكل من كان يستمع إلينا كان يوافق على ما يقوله.

فى قسم النساء كانت توجد صبية صغيرة تبلغ من العمر ١٢ عامًا، تتعلم أن تسير بقدمها الجديدة المصنوعة من البلاستيك، وهى تتحرك ببطء بطول إثر أقدام حمراء على الأرض. فى أحد الأيام، منذ ستة أشهر، طلبت منها أمها أن تذهب لتبحث

عن بعض الخشب ليشعلوا النيران. بعد قليل سمعت الانفجار والصراخ. أسأل إخصائية العلاج الطبيعي التي تساعدها، وهي أيضًا بلا قدم، والتي فقدتها منذ أعوام فوق لغم مختبئ في ممر المدرسة، إذا كانت تعتقد أنه في الإمكان الوصول إلى عالم بلا حرب. ضحكت، وكأنني قلت لها دعابة وقالت: مستحيل، مستحيل.

أي سياسي يزور كابول يزور مركز "ألبرتو كايرو" ويقدم بعض المساعدات ليستأنف من جهة أخرى عمله المُقنع جدا. إن ما لا يجرؤ أحد على قوله هو أن الطريقة الوحيدة لوضع حد لذلك الذي يحدث، وتضع حدا للمساعدات ولزيارات الساسة هو أن يمنعوا - الآن وعلى الفور - تصنيع وتجارة كل أنواع الألغام. لماذا لا يقوم "المجتمع الدولي" بإرسال "قوى حفظ السلام" لتزيل بعض مصانع الألغام، أينما كانت في العالم!

عاش ألبرتو كايرو في أفغانستان منذ اثني عشر عامًا، وينوي المكوث ما تبقى له من عمر. لديه عمل كثير: بالإضافة إلى المليون لغم القديمة الموجودة، توجد الآن كل تلك الألغام الجديدة التي نثرتها الطائرات الأمريكية من السماء. حتى هو يضحك على أمنياتي بأن يكون هناك عالم بلا حروب. قال "في أفغانستان الحرب هي ملح الحياة، فالحرب لها مذاق أكثر من السلاح". لم يكن تعليقه بدافع الشك بل بدافع استسلام.

ولكن لا يمكنني الاستسلام، حتى ولو كنت أدرك أن ما نعيشه حاليًا هو لحظة مأساوية جدا في تاريخ الإنسانية. منذ أسابيع بدا لي أن كل شيء أراه وأسمعه بشأن هذه الحرب يثبت لي أن الإنسان ليس هو أنبل أجزاء الخليقة، وأنه في مسيرته تجاه التحضر يتعرض الآن - أمام أعيننا وبمشاركتنا - لضربة قوية أوقفته.

في بداية الألفية التالية، في بداية - ذلك الذي اعتقد الكثير من الشباب بأنه العصر الجديد "The New Age"، الحقبة الجديدة للسلام والسعادة، شرع الإنسان في عملية غاية في الخطورة من نوع الهمجية الجديدة. في الوقت الذي بدت فيه سلسلة من قواعد التعايش الإنساني مطمئنة واتفقت عليها الأغلبية، في الوقت الذي بدت فيه منظمة الأمم المتحدة مقرا لحل الصراعات، في الوقت الذي بدت فيه اتفاقيات حقوق

الإنسان، وحماية الطفولة، والمرأة والبيئة قد رسخت قواعد أخلاقيات عالمية جديدة، اضطرب كل شيء وعادت إدارة قتل الآخرين لتصبح عملاً عاديا تقنيا بيروقراطيا كما أصبحت في النهاية عملية نقل اليهود بالنسبة لإيخمان(*).

تحت أنظار الجنود الغربيين، وأحيانًا بمشاركتهم الفعلية، يتم قتل مساجين مقيدة أياديهم خلف ظهورهم رميًا بالرصاص ويتم وضع ملف المذبحة في الأرشيف، بعد تعريفها بطريقة مريحة بأنها "عصيان/تمرد من المساجين". يصف شخص في منصب رفيع مثل وزير الدفاع الأمريكي رامسفيلد محاربي أسامة بن لادن بأنهم مثل "الحيوانات الجريحة"، ولهذا السبب فهم غاية في الخطورة وبالتالي يمكن قتلهم، حتى وإن كان رفض استسلام محارب بلا سلاح هو جريمة من جرائم الحرب كما جاء في معاهدات جينيف. إن واقع ظهور الوزير رامسفيلد اليومي تقريبًا في قاعة البنتاجون أصبح من أكثر البرامج الشعبية والأكثر مشاهدة في أمريكا بما يخبر بالكثير عن الواقع الحالي لجزء كبير من البشرية.

إن التعذيب نفسه توقف عن أن يصبح شيئًا مسكوتًا عنه في الضمير الغربي، وفي البرامج الحوارية أصبحوا يتناقشون حاليًا على الملأ حول شرعية اللجوء إليه عندما يتعلق الأمر بانتزاع معلومات من الشخص المشكوك فيه، ومعلومات تنقذ حياة أمريكيين. عدد قليل جدا يعترض على ذلك. لا أحد يسأل على الملأ إذا كان الجنود الأمريكيون (المارينز)، أم القوى الخاصة وعملاء المخابرات الأمريكية، والذين يحققون مع مئات من الطالبان والعرب ليكتشفوا أين يختبئ أسامة بن لادن، يفعلون ذلك مع مراعاة احترام القوانين التي تنظم التعامل مع مساجين الحرب أم لا. إن "المجتمع الدولي" قد قبل الآن أن الاهتمام الوطني الأمريكي يفوق أي مبدأ آخر، بما في ذلك ما تم بالفعل التعدي عليه وهو السيادة القومية.

إن الصحافة الأمريكية نفسها قد نحت جانبًا العديد من المبادئ القديمة التي كانوا يقدرون أهميتها في الماضي لدورها في تقييد السلطات. لقد رأيت بعيني النسخة

(*) أحد المسئولين الكبار في الرايخ الثالث، وضابط في القوات الخاصة الألمانية التي تعرف بقوات العاصفة، ولد في ١٩ مارس ١٩٠٦م ورحل في ١ يونيو ١٩٦٢م، تعود إليه مسئولية الترتيبات اللوجستية بوصفه رئيس جهاز البوليس السري في إعداد معسكرات الاعتقال وإبادة المعتقلين فيما عرف آنذاك باسم "الحل الأخير". (المراجع)

الأصلية من مقالة كتبها من أفغانستان مراسل إحدى الصحف اليومية الكبيرة وما نُشر بالفعل. في وقت ما، كان ما حدث يمكن أن يكون سببًا في فضيحة. ولكن لم يعد هذا ما يحدث الآن. قال لي الصحافي: لقد أصبحنا الآن مثل البرافدا (الصحيفة الروسية المتحدثة باسم الحكومة).

وعندما اقترح مراسل آخر أن يكتب وصفًا نفسيا للملا عمر، ليشرح - ضمن أشياء أخرى - كيف ولماذا قد يعرض القائد الأعلى لطالبان نظامه بأكمله للخطر بعدم تسليمه بن لادن، كان رد إدارة التحرير: لا، الشعب الأمريكي ليس مستعدا بعد لذلك. والحقيقة أنه لابد من تجنب كل ما يمكن أن يضفي ملمحًا إنسانيا على صورة "العدو"، كل ما يمكن أن يُفسر دوافعه. لابد من تحويل العدو إلى الشيطان، لابد من تقديمه على إنه وحش مرفوض لابد من التخلص منه.

للحظة واحدة فقط، كانت هناك في التغطية المباشرة للسى إن إن حول مذبحة مساجين قلعة مزار شريف، لمسة من التعاطف لتلك المئات من الجثث الملقاة بطريقة مزرية في الممر، والتي كان أحد جنود حلف الشمال يسير بينهم ممسكًا بكماشات بشعة، محاولاً انتزاع الأسنان الذهبية من الأفواه المفتوحة. وعلى الشاشة ظهر سويسري من اللجنة الدولية للصليب الأحمر والذي شرح بأنه هناك ليلتقط الصور ويحاول التعرف على هويات أولئك الموتى. وأضاف: "لكل واحد منهم عائلة". إن تلك اللقطات السريعة وتلك الكلمات القليلة اختفت من كل المرات الأخرى التي أذيعت فيها هذه التغطية مرات أخرى عديدة.

ولكن القصة التي لم تختف، بخلاف هذا - بل على العكس أعادوها مرات لا نهاية لها، وخاصة في البث الإذاعي وفي صوت أمريكا وفي البي بي سي الموجه إلى آسيا- هي التي تحكي كيف أنه في الأيام الأخيرة أوقفت مجموعات من طالبان في نقاط التفتيش أتوبيسا في طريق كابول - جلال آباد، وبعد أن فتشوا، كما كانوا يفعلون عندما كانوا في السلطة، الطول "الإسلامي" لذقون المسافرين، قاموا بقطع أنف وآذان كل من قام بقصها. تم نقل جميع الضحايا إلى مستشفيات كابول وجلال آباد. في صباح أحد الأيام تجولت في كل مستشفيات العاصمة لأبحث عن أولئك البائسين، لم أعثر على أي منهم، فلم يكن لهم وجود. كانت تلك القصة غير حقيقية، ولكن بعد

إذاعتها لم يقم أحد بتكذيبها. وبالطريقة نفسها كانت القصة، والتى استخدمتها زوجة تونى بلير، لتتحدث عن "الأعمال المخيفة" لطالبان، مزيفة. تحكى القصة أنه فى نظام حكم طالبان يقومون بنزع أظافر النساء، اللاتى يطلين أظافرهن، بالقوة.

إن الانفعالات التى أثارتها هذه السلسلة من الأخبار المزيفة، بما فيها قصة زجاجات غاز الأعصاب "التى تم العثور عليها" فى أحد معسكرات القاعدة بالقرب من جلال آباد، خدمت جميعها فى أن يتم قبول بشاعات الحرب، وأن يتم وضع الضحايا فى حساب "الثمن الذى لابد منه" والذى لابد من دفعه لتحرير العالم من خطر الإرهاب. كانت هذه هى نهاية سياسة المعلومات والمعلومات المضللة التى تتبعها واشنطن، وإن هذا ما قام بتعبئة الرأى العام فى العالم الغربى، إن الرقابة الذاتية لوسائل الإعلام الأمريكية، وجزءًا كبيرًا من تلك الأوروبية أيضًا، اهتمت بما تبقى.

إن الإصرار الذى انتوت به الولايات المتحدة أن تقوم بإسكات أى صوت باحث عن الحق، وتجفيف كل نبع ممكن للحقيقة البديلة، اتضح فى حادث الصاروخ الذى سقط "بالخطأ" على مقر كابول للقناة العربية "الجزيرة". ذهبت لأشاهد ما حدث، لم يكن هناك أى خطأ، إن الفيللا التى كان يوجد بها مكتب القناة كانت الثالثة فى صف توجد فيه مبان كلها متشابهة، مبنية من الإسمنت، جميعها من مستوى واحد، بحديقة صغيرة تحيط بها، وتقع فى شارع عريض متشابه لشوارع كثيرة فى حى وزير أكبر خان. فى الجوار لم تكن هناك أى مخازن، أو وزارات أو دبابات، أو أى أهداف عسكرية أخرى. فى منتصف الليل، انطلق صاروخ واحد من طائرة على ارتفاع عالٍ إلى حد كبير، وسقط تمامًا على تلك الفيللا، مدمرًا إياها. إنها ضربة ضد حرية التعبير، ولكنها ضربة أصبحت حاليًا متوقعة ومقبولة ومُبررة، ضربة أصبحت جزءًا من حياتنا مثل المحاكم الأمريكية الخاصة، وعمليات الاعتقال بلا إذن قانونى، وأحكام الموت بلا استئناف.

إلا أنه لا شىء من كل هذا قد زعزع الرأى العام، لا القتلى الأبرياء، ولا مذابح المساجين، ولا تقليص حقوقنا الأساسية، ولا الظلم الشديد للحرب. كلها لم تزعزع الرأى العام الأمريكى بالتأكيد، ولا حتى الرأى العام الأوروبى.

إن اللامبالاة الحالية المنتشرة تجاه ذلك الذى يحدث للأفغان، ولكن فى الحقيقة أيضًا، وبدون أن ندرى، ذلك الذى يحدث لنا أنفسنا، له جذوره العميقة. أعوام من الجرى وراء المادة بلا محاولة للتوقف قد قلصت وهمشت من دور الأخلاقيات فى حياة البشر، صانعين من قيم مثل النقود والنجاح والأرباح الشخصية المقياس الوحيد للحكم. حيث إنه لم يعد لديه وقت ليتوقف ويُفكر، مأخوذا بشكل دائم بعجلة حياة تنافسية إلى أعلى مستوى، تترك دائمًا مساحة أقل للخاص، ذلك أن إنسان الحياة الرغدة والاستهلاكية فقد قدرته على التأثر أو الامتعاض. فهو متمركز جداً حول نفسه، ليس لديه عين أو قلب يرى ويحس بما يحدث حوله.

إن هذا النمط من الرجل الغربى، المستهزئ واللا مبالى، والأنانى والفاسد سياسيا - أيا كان نوع السياسة - إنما هو نتاج مجتمع التطور والثراء الخاص بنا. إن ما يشعرنى بالخوف اليوم ضخامة ما يصنعه الإنسان بالكلاشينكوف، وخلخلة الهواء ذات قوة التمزيق العالية والموجودة حاليًا فى كل ناصية من شوارع كابول. الاثنان يتساويان، إنهما نموذجان مختلفان للظاهرة نفسها: ذلك الخاص بالإنسان الذى ينسى أن لديه ضميرا، وأن دوره فى الكون ليس واضحًا، ويُصبح الأكثر تدميراً من كل الكائنات الحية، سواء بتلويث مصادر المياه على الأرض، أو بتقطيع الغابات، وقتل الحيوانات فيها، والاستخدام المستمر لأشكال العنف المتنوع ضد أمثاله فى النوع. يبدو لى كل شيء واضحا فى أفغانستان، وهذا يحرقنى ويملأنى بالغضب.

لهذا، وإذا تأملت جيداً، سأجد أن لحظة السعادة التى شعرت بها فى هذا البلد كانت عندما رأيته من فوق. من على متن طائرة صغيرة ذات تسعة مقاعد تملكها الأمم المتحدة وكانت تطير من إسلام آباد متجهة إلى كابول، كان العالم يبدو وكأن الإنسان لم يوجد قط، ولم يترك أى أثر لوجوده. من هناك، من فوق، كان العالم يبدو، لدهشتى، رائعًا؛ بلا حدود، وبلا صراعات، وبلا أعلام يموت المرء لأجلها، وبدون أوطان للدفاع عنها.

أشعر بالشفقة على هؤلاء

الذين يربطون حبهم لأنفسهم بالوطن

فالوطن ليس إلا

مخيمًا فى صحراء من حصى.

هذه كلمات أغنية قديمة من الهيمالايا يستشهد بها فوسكو مارايني في كتابه "سر التبت"، حتى وإن كانت هذه الخيام موجودة لم أكن لأراها.

لتظل الطائرة فى مساحة آمنة كانت تطير على ارتفاع عشرة كيلومترات، وكانت الأرض تتغير ألوانها بين الأحمر والبنفسجي والرمادى، مثل الجلد المتجعد لعملاق مسن، وكانت الأنهار هى عروقه. وفى الأمام، مثل بحر هائج تجمد فجأة، كان أمامنا سلسلة جبال هندوكوش، "قاتلة(*) الهنود"، بسبب مئات الآلاف من الهنود الذين ماتوا بسبب البرد فى تلك البلاد بينما كان يتم نقلهم بوصفهم عبيدا تجاه آسيا الوسطى من الغزاة المغول.

كانت أفغانستان منذ الأزل - نظرًا لوضعها الجغرافى - هى الممر الكبير للعالم. من هنا مرت كل الديانات العظمى، وكل الحضارات الكبيرة، والممالك الكبيرة. من هنا مرت كل الأعراق وكل الأفكار، كل البضائع وكل الفنون. هنا وُلد الفيلسوف المثالى زرادشت، والشاعر ابن الرومى، هنا وُلدت الترانيم الفيدية(**) والتى فى أصلها كتابات هندية مقدسة، ومن هنا جاء التحليل الأول النحوى للسنسكريتية، اللغة التى تدين لها لغاتنا جميعًا بشيء ما. من هنا عبر كل من ذهب عبر العصور ليسرق ثروات الهند المادية، ومن هنا عبرت ثروات الهند الروحية؛ البوذية، قبل أن تنتشر في آسيا الوسطى، والصين وكوريا وأخيرًا فى اليابان. فى أفغانستان عبرت البوذية، بعد مقابلتها باليونانية التى تركها الإسكندر خلفه، عبرت البوذية عن نفسها فى أكثر الأشكال الفنية

(*) سلسلة جبال فى أفغانستان وشمال غرب باكستان. تعتبر سلسلة جبال هندوكوش الامتداد الغربى الأقصى لجبال بامير وكاراكورام والهيمالايا. يبلغ ارتفاع جبال هندوكوش ٧٩٦٠ م عن سطح البحر عند أعلى قممه، والتى تسمى تيريش مير. تتميز جبال هندوكوش بأنها جبال قاحلة وذكر ابن بطوطة فى رحلاته أن اسم هندوكوش يعنى "قاتل الهنود" حيث إن هذه الجبال كانت تستخدم ممرًا لجلب العبيد من الهند، لكن العديد منهم كان يلقى حتفه فى الطريق بسبب اختلاف المناخ عليه وبرودة الجو الشديدة. (المراجع)

(**) فيدا (بالإنجليزية: Vedas) الكتاب المقدس للديانة الهندوسية، وهو كتاب يقع فى ٨٠٠ مجلد تقريبا تم تأليفه طيلة ١٠٠٠ سنة وقيل ٣ آلاف سنة، وهى النصوص المقدسة من الترانيم والتراتيل لدى الأريين الهنود لتكريم الآلهة. (المراجع).

رقيًا. إن أفغانستان، المنجم العميق للتاريخ الإنسانى، بعضها مدفون فى الأرض فى مناطق مثل مزار شريف، وكابول، وكوندوز، وهيرات، وغازنى، وبالخ، وباكتريا القديمة، والمعروفة باسم "أم كل المدن".

وأنتم، ماذا تفعلون هنا؟ سأل رحالة أمريكى عام ١٩٢٤م، مندهشًا من أن يرى فى كابول، وبين القوى العظمى، السفارة الإيطالية أيضًا. نحن هنا بسبب "التنقيب عن الآثار". هكذا كان رد المبعوث السياسى والذى كان باترنو داى ماركى. فى بداية القرن الماضى كانت أعمال التنقيب التى قامت بها بعثاتنا العلمية فى أفغانستان كثيرة جدًا، وكانت بالفعل شيئًا مؤلمًا. فى الأسابيع الأولى للقصف، سماع أن طائرات البى - ٥٢ الأمريكية، فى مطاردتها للطالبان، كانت تمارس شكلا جديدا من أشكال التنقيب بأن تقوم بالحفر، وفى الخلفية أصوات القنابل الملقاة، فى تلك الأماكن الثمينة.

إن هذا - أى أن تكون فى وسط اهتمامات الآخرين - هو قدر أفغانستان. بدءًا من اليونانيين إلى الفارسيين، ومن المغول إلى الأتراك، ووصولاً إلى الروس وإلى الإنجليز فى القرن التاسع عشر، كانت أفغانستان دائمًا موقع لعبة كبيرة ما - حتى اليوم ما زال الأمر كذلك.

عندما هبطت طائرة الأمم المتحدة على ساحة باجرام، فى موقع كان منذ ألفى عام عاصمة الحضارة العظيمة - كوشان- والتى محت الحروب كل أثر له على السطح، كان كل اللاعبين الجدد هناك، على هذه الساحة الإسمنتية فى وسط وادٍ تحول الآن لصحراء ملأتها بالنقاط جثث الدبابات، وطائرات الهيليكوبتر، والشاحنات، والطائرات والمدافع. بينما جاء ثلاثة من الجنود الأمريكيين، ومعهم كلب أمريكى أيضًا، ليشتموا بدقة حقائبى. وبالقرب من طائرتنا، كان الجنود الروس ينقلون، من إحدى طائراتهم إلى صف من الشاحنات، المظلات المغلقة المكتوب عليها: "من روسيا إلى أطفال أفغانستان". وأمام حطام أحد المخازن، كانت تظهر جثث بعض الجنود الإنجليز. كان لابد من النظر للجبال الرائعة والتى فى وقت الغروب تبدو وكأنها استعادت الحياة وتسير مع حركة الظلال والألوان، حتى لا يشعر المرء باليأس: القصة القديمة على وشك أن تبدأ، بكل بساطة.

إن المجتمع الدولى يعتقد أنه عثر على حل لمشكلات أفغانستان فى وصفة تحتوى على العنف والنقود، والميليشيات الأفغانية والتى ارتكبت جرائم متنوعة، ولكن الآن أبعدتهم أيضًا مقاتلات البى -٥٢ ، وشخص مثل القائد الجديد للقوى التنفيذية، حميد كرزاى، الباشتون الوحيد والضعيف بين الممثلين الأقوياء للأعراق الأخرى.

أتمنى أن تنجح الوصفة، ولكننى لا أعتقد ذلك. من المؤكد أن الحياة فى كابول أيضًا ستعود إليها مرة أخرى، لقد رأيت هذا يحدث بالفعل فى "بنوم بنه" فى أعقاب نهاية "الخمير الحمر"، ورأيتها أيضًا تعود مرة أخرى فى غابات اللايوس وفيتنام، والتى كانت قد نزعت الأسلحة الكيماوية والمسرطنة الأمريكية، أوراقها. ولكن أى حياة؟ حياة جديدة، حياة أكثر إدراكًا، حياة أكثر تسامحًا، أكثر سعادة، أم ستكون الحياة المعتادة الآن عدوانية، ومتوحشة وعنيفة؟

إحدى اللحظات التى لن أنساها أبدًا عن تلك الأيام فى كابول كانت زيارتى إلى حديقة الحيوان. اقترح على "بائع البطاطس" أن أذهب قائلاً: الأمر يستحق ذلك، صدقنى. كان يوم جمعة، وهو يوم العطلة الرسمية للمسلمين ودفع بضع عشرات من الأشخاص ألفى أفغان (ما يعادل ٠,٠٤ يورو) ثمن التذكرة ليدخلوا ويشاهدوا أكثر مجموعة مثيرة للشفقة وبائسة من الحيوانات التى يمكن للمرء تخيلها؛ دب صغير بأنف متسلخ ومتقيح، وأسد مسن وأعور يمكنه الوقوف على قدميه، وماتت منذ فترة قريبة لبؤته، وظبى صغير، وبومة، وصقران بلا ريش والعديد من الأرانب والحمام. فى أثناء الحروب بين مختلف مجموعات المجاهدين لحلف الشمال، وقبل أن يصل الطالبانيون، كانت حديقة الحيوان تقع فى مقدمة خط الجبهة، وسقطت عليها العديد من القنابل والصواريخ، وفُتحت الكثير من الأقفاص مما سمح لحيوانات كثيرة أن تهرب. لم يكن الذئاب سعداء الحظ إلى هذا الحد، وفى قفص رائحته سيئة جدا، وبلا ماء، وحيث يضع لهما أحد الحراس ما يتبقى من اللحم مرة فى اليوم، بقيا كنموذجين مثاليين. فهما هناك منذ سنوات، وحيدان، وسجينان، ومحبوسان فى المساحة نفسها. يعرف كل منهما الآخر معرفة جيدة، بل يحكان ظهريهما باستمرار، فى حذر، فى الحوائط غير النظيفة بالمرة، والشباك التى أصبحت مملوءة بالرقع، وعندما يتقابلان فى كل مرة

يتدحرجان، يكشر كل منهما أنيابه ويهاجم كل منهما الآخر، يحرضهما على ذلك حشد صغير من الناس، والذين ربما يوهمون أنفسهم بأنهم مختلفون – ولا يُدركون – هم أيضًا، أنهم موجودون فى قفص الوجود فقط ليموتوا فيه.

أليس من الأفضل إذن أن نعيش فيه جميعًا فى سلام؟

خطاب من دلهى
هاى رام

دلهى، ٥ يناير ٢٠٠٢م

الهند هى وطنى، أعيش فيها منذ أعوام. هناك أحتفظ بكتبى، وأجد لنفسى ملجأً يبحث عنه الشخص هربًا من أعاصير العالم. هناك أشعر، أكثر من أى مكان فى العالم، بالمعنى الحقيقى لمرور الأيام. ولكن أيضًا الهند الآن أصبحت مخيبة للآمال. حتى فى الهند لا يتحدثون إلا عن الحرب، عبأت الهند جنودها ومدافعها، هددت باستخدام قنابلها النووية ضد باكستان، ومثل الأول على فصله الذى حفظ لتوه التعليم العبثى لجورج دابليو بوش: "إما أن تكون معنا أو مع الإرهابيين، وهى تحتشد سعيدة خلف حافلة الحرب الأمريكية. بلد يسكنه مليار شخص، البلد الذى يدين باستقلاله إلى غاندى، المهاتما، الروح العظيمة أصبح الآن بلدا مثل كل البلاد الأخرى، باللأسف.

كانت هذه هى فرصة الهند لكى تعود إلى أصولها، بأن تعاود العثور على اللغة القديمة لقوتها الحقيقية؛ "عدم العنف"، الفرصة لأن تعيد صناعة تاريخها الحديث لعدم الانحياز وتذكر العالم كله بإمكانية وجود "طريق وسط"، كان له وجود منذ الأزل. وفى هذه الحالة ليس معهم، وليس مع الإرهابيين.

حتى هنا لا يشعر أحد بأن التشبيه البليغ "كتفا بكتف"، نغمة التحالف الدولى ضد الإرهاب، هى نغمة تتراوح كثيرًا بين الغضب والكبرياء، بين الشجاعة والإصرار، وأن أحدًا ما على استعداد للتضحية. وكل هذا لأن الحكام الحاليين للهند يتمنون الاستفادة من الموقف الذى خلقه الهجوم الأمريكى على أفغانستان ليحلوا بالقوة مشكلتهم مع كشمير والتى لم تحلها أى قوة منذ خمسين عامًا (كانت هناك بالفعل ثلاث حروب بين الهند وباكستان)، أو الأسوأ من ذلك، لأن الحزب الرئيسى للتحالف الحاكم، البى جى بى، يتمنى من خلال رفع الصوت الغليظ للحرب، دون أن يريدها بالفعل، أن يفوز بالانتخابات القادمة فى دولتين مهمتين فى البلد. هكذا أصبح العالم، أيضًا ذلك الهندى، الآن لا يوجد مبدأ، ولكن العديد من الذرائع، لا يوجد أى تطلع روحى، فقط الرغبة فى مصالح مادية، صغيرة كانت أو كبيرة.

كل دروس الماضى نُسيت. وإليكم درس صغير جدا جدا منها، ولكن، مثل كل دروس غاندى، هو درس آخر للتأمل فيه. فى عام ١٩٤٧م، كانت الهند وباكستان قد أصبحتا - رسميا - دولتين مستقلتين. فى الحقيقة كانتا جذعين يدميان من جسد واحد ساهمت ازدواجية سلطة الاحتلال الإنجليزية الاستعمارية فى فصلهما. لقد اعترض غاندى بكل قوته على هذا الانفصال. وكان يقول إن باكستان والهند هما بلده، وإنه سيرفض استخدام جواز السفر ليذهب من بلد لآخر. لقد هُزمت نزعته المثالية ولم يوقف امتناعه عن الطعام الهجرة الجماعية اليائسة للشعوب ومذبحة سقط ضحاياها، على الأقل، مليون شخص. وسادت واقعية المصالح الصغيرة والكبيرة.

كان الانقسام قد تم، بطريقة مبهمة، على أساس الانتماء الدينى، الهندوس من ناحية والمسلمون من الأخرى، تاركين لكل مهراجا هندى من القائمين على ٥٦٢ إمارة أن يختار لأى جانب يريد الانضمام. كان أمير كشمير مترددا؛ فقد كان هندوسيا، ولكن كانت غالبية رعاياه من المسلمين. وهكذا ولمدة شهرين احتفظ باستقلاله. استغلت باكستان الموقف لترسل إلى كشمير "متطوعيها" ليضموا ذلك الجزء الثمين من الأرض. واستغل الهنود الموقف ليدفعوا المهراجا إلى القرار لصالح الهند، وأرسلوا إلى كشمير جيوشهم. كانت الحرب تدور بالفعل عندما تعلق الأمر، لاستكمال تقسيم تلك التى كانت الإمبراطورية الإنجليزية فى الهند، بتقسيم الثروات التى تبقت بالتساوى بين الهند وباكستان، والتى ما زالت حتى الآن محفوظة فى خزائن مشتركة فى دلهى. كان نهرو، أول رئيس وزراء للهند، يصر على أن باكستان ستستخدم هذه النقود لتمول الحرب فى كشمير، وأن الهند لابد لها أن تحتفظ بكل شىء. ولكن غاندى لم يكن يرغب فى معرفة شىء عن هذا. كان يرى أنه لا يوجد سبب يمكنه أن يعلو على مبدأ العدالة المقدس. إن لباكستان حقًا فى الجزء الخاص بها، ولابد للهند من أن تعطيه لها. وهكذا فعل. وياله من درس! درس كلفه حياته. فى أعقاب ذلك القرار بإعطاء ٥٥٠ مليون روبية لباكستان، اتهم الهندوس المتشددون غاندى بأنه موالٍ للمسلمين، واغتالوه فى ٣٠ يناير ١٩٤٨م.

منذ تلك اللحظة لم يحل السلام قط بين الهند وباكستان، وظلت كشمير - المحطمة والمعذبة والمقسمة بما يسمى "خط المراقبة" والذى عليه يتواجه الجيشان، المسلحان حاليا بقذائف نووية - فى حلبة معركة. وكما يحدث حاليا فى كل الحروب، من يسقطون جرحى هم المدنيون.

إذا كان غاندى، أو أى شخص فى قامته الروحية ما زال موجوداً حتى اليوم، كان سيعلم جيداً أنه لم يكن فى مشكلة كشمير طرف "صائب"، وأن كلاً من باكستان والهند عليهما مسئوليات حاسمة فيما يتعلق بالوضع الحالى، وأن كلاً منهما، سعيا وراء هدفها الخاص ارتكبت جرائم رهيبة، وأن الضحايا الحقيقيين لكل هذه القصة كانوا - ولا يزالون - الكشميريين، والذين لم يسألهم أحد ببساطة، لمدة نصف قرن: وأنتم ماذا تريدون؟ فى رأيى، عليهم قبل كل شىء المكوث فى سلام والاستمتاع بذلك الوادى الذى ما زال من أجمل المناطق فى العالم.

فى أحد الأيام حتمًا سيفعلون ذلك، إلا إذا أقدمت الإنسانية على الانتحار، لأن القارة الهندية الكبيرة - بتعداد سكانها المساوى لتعداد الصين- لابد وأن تعود إلى ما كانت عليه عام ١٩٤٧م؛ وحدة فى التنوع. إن الهنود والباكستانيين والبنجلاديشيين لهم أصول واحدة وثقافة واحدة، وتاريخ واحد، بما فى ذلك التاريخ الحديث للحروب التى دارت فيما بينهم، تمامًا مثل الفرنسيين والألمان والإيطاليين والنمساويين. إذا كانت القارة الأوروبية قد نجحت فى أن تصبح اتحاداً، فيمكن أيضًا بكل تأكيد أن تصبح القارة الهندية كذلك.

لماذا إذن، بدلاً من إعداد مذابح جديدة، لا نعمل على الفور، الآن، على التعاون بتكامل أكبر، للحصول على قارة بلا حرب، بلا جبهات، وربما بعملة موحدة، وإذا كان ذلك شيئًا مبالغا فيه، على الأقل من خلال التزام أكبر، مشترك لمنح مياه الشرب للجميع، نظرًا لأنه من باكستان إلى الهند إلى بنجلاديش، يتمتع ربع السكان فقط بهذا؟

ولكن مياه الشرب لا تبدو قضية جديرة بالاهتمام، الحرب أهم من ذلك بكثير. وإذا كانت تلك الحرب اللعينة بين الهند وباكستان - ربما أيضًا على سبيل الخطأ- لابد أن تنفجر بالفعل وتتحول إلى حرب نووية - نظرًا لأن الخطأ يجر وراءه أخطاء أخرى، سيسقط عدد رهيب من القتلى.

إن الوضع الحالى بين الهند وباكستان هو الدليل الساطع على عبثية وظلم وخطورة العقيدة الأمريكية التى أعلنها وعضدها التآلف الدولى ضد الإرهاب. إن كل الأسباب التى تبنتها الولايات المتحدة للذهاب وقصف أفغانستان وطرد الطالبانيين يمكنها الآن أن تمنح للهند الحق فى قصف باكستان وتسويتها بالأرض، وقلب نظام الجنرال مُشرف، لقد كان الهنود منذ سنوات ضحية لهجوم إرهابى شرس، كان الهجوم الأخير على البرلمان فى ١٣ ديسمبر الماضى، لا شك أن المنظمات الإرهابية التى تضرب الهند لديها مقر فى باكستان، وقد ثبت أيضًا بالدليل أن الحكومة الباكستانية قد منحت اللجوء لأولئك الإرهابيين. أهى الحرب إذن؟ هل ستكون حربًا عادلة من قبل الهند؟ لا توجد حرب عادلة. ولكن تبقى مشكلة: من هم الإرهابيون؟ إن كثيرا من الرجال الذين تطلق عليهم الهند هذا التعريف هم بالنسبة لآخرين محاربون يحاربون فى سبيل حريتهم. توجد أيضًا مشكلة أخرى؛ على عكس الطالبانيين، والذين لم تكن لديهم أى وسيلة للدفاع أمام القوى العظمى لأمريكا، فإن الباكستانيين لديهم قوى مسلحة حديثة، فلديهم متفجرات نووية والحرب ضدهم ستكون عواقبها وخيمة.

لذلك ينكب الأمريكيون فى هذه الأيام على محاولة تهدئة النفوس بين الزعيمين ووراء تلك الرغبة فى أن يوضحوا أنهم هم فقط الأمريكيين - يمكنهم أن يطاردوا الإرهابيين، وأنهم هم فقط يمكنهم الذهاب لملاحقتهم فى البلاد التى تحلو لهم، وهم فقط - الأمريكيين - يمكنهم أن يذهبوا للتخلص من الحكومات التى لا تعجبهم. هل فى الإمكان تخيل أن يطالب بلد ما الولايات المتحدة بأن تُسلم إلى العدالة مواطنا من مواطنيها ارتكب أى عمليات إرهابية فى كوبا، أو هاييتى، أو شيلى؟ أو أن تقوم واشنطن بتسليم إحدى تلك الشخصيات المريبة والتى كانت، لحساب الولايات المتحدة، مسئولة عن إطالة الحملات الإرهابية، على سبيل المثال فى أمريكا اللاتينية، والذين يستمتعون الآن بالحماية الأمريكية.

إن ما تسعى وراءه الولايات المتحدة هو العدالة "الخاصة بها"، وليس العدالة المطلقة. إن الولايات المتحدة ليس لديها أدنى اهتمام بأن تحل مشكلة كشمير، كما لا تهتم أيضًا بحل مشكلة أفغانستان. لقد دخلوا بالقوة إلى تلك المنطقة لينفذوا انتقامهم وليتابعوا مصالحهم القومية. والآن وقد حضروا إلى هنا، سيبقون هنا. إن الهجوم على أفغانستان حرك محور العالم، ومنح الولايات المتحدة، للمرة الأولى فى

التاريخ، حق الدخول بحرية إلى وسط وجنوب آسيا. لن يتنازلوا عن هذه الفرصة، إن الاتفاقيات التى تمت مع الجمهوريات السوفييتية السابقة سيتم مدها إلى ما بعد فترة الطوارئ المناهضة للإرهاب، والقاعدة العسكرية التى تعمل الولايات المتحدة على بنائها حاليا فى جاكوب آباد فى باكستان ستصبح قاعدة دائمة، أيضًا لأنها تهدف للمراقبة عن قرب - وفى الحالة القصوى تدمير أيضًا - القاعدة النووية الباكستانية، والتى تُعد كما هو معروف - "القنبلة النووية الإسلامية".

وبوضعهم لأنفسهم، بلا شرط أو تفكير، فى أعقاب القوى الأمريكية - ربما على أمل الاستفادة من الموقف لصالح أهدافهم الخاصة-، لم يفعل الهنود شيئًا سوى زيادة ثقل الولايات المتحدة فى المنطقة، والتخلى بصفة نهائية عن موقفهم من الابتعاد والاختلاف عن الكتل الأخرى. لم يكن هذا ضروريا.

إن الهند بلد فقير، ولكن ما زال لديه حتى الآن - وربما يكون الأخير فى العالم - ثقافة قوية وعميقة ذات طابع روحى، قادرة على مقاومة الموجة المادية وموجة العولمة والتى سطحت كل الهويات وتسببت فى وجود نوع من الامتثال الخانق. كانت هذه هى اللحظة التى كان يمكن فيها للهند أن تفتخر باختلافها، وأن تتذكر أن العالم يحتاج لتحالف ضد الفقر، تحالف ضد الاستغلال، تحالف ضد عدم التسامح أكثر من احتياجه لتحالف ضد الإرهاب.

إن الهند "أكبر الديمقراطيات فى العالم"، كان يمكنها أن تُذكِّر ديمقراطيات الغرب بأن حل مشاكلنا لا يمكن أن يتم بتقليص حريات مواطنينا، وبحماية مجتمعاتنا بالأسلاك الشائكة، ولا بأن نعطى دائمًا السلطة للمنظمات القمعية وبالتالى يزداد شعور الإقصاء لمن هو مختلف.

كانت هذه هى اللحظة التى يمكن للهند فيها إعلان موقفها المناهض للعنف، كل أنواع العنف، حتى ذلك الخاص "بالنظام العالمى الجديد"، والذى من خلال مبادئه ومعاييره التى تتظاهر بأنها "كونية"، ولكنها فى الحقيقة مبادئ ومعايير البلاد "القوية" والاستعمارية سابقًا، والتى تفرض على الهند نفسها، وعلى بلاد أخرى كثيرة عانت الاستعمار، غير متطورة اقتصاديا وبالتالى "ضعيفة"، سياسات تزيد فقط من ثراء الأثرياء ومن فقر الفقراء وتزيد من تعاستهم جميعًا.

إلا أن الهند ما زالت - على الرغم من ساستها - بلدا متميزًا، بلدا لم يتحرك هيكله الاجتماعي فقط مندفعًا بتطلعات أرضية. فقط في الهند، حتى يومنا هذا، ملايين وملايين من الرجال والنساء، وبعد حياة عادية كآباء أو كأمهات، موظفين أو مهنيين، يتخلون جميعًا عن كل ما ينتمي لهذه الحياة - الممتلكات والمشاعر، والرغبات والاسم - ليصبحوا "صنياسين" أي المتخلين، ويرتدون اللون البرتقالي، وفي السن التي نُحال فيها نحن إلى المعاش، يبدأون هم في رحلة الحج الخاصة بهم، من معبد إلى معبد، ومن أشرام إلى أشرام(*)، يجولون في البلاد ويعيشون على عطايا الناس. ما دام سيستمر هذا في الحدوث، وسيستمر الشعب يُطعم الصنياسين، ويحترمهم، فإن الهند ستظل تمثل بديلا وجوديا وفلسفيا للنزعة المادية التي تسيطر على باقي العالم اليوم. لذلك تبقى الهند، في واقع الأمر، جبهة مقاومة ضد العولمة ولصالح الدفاع عن التنوع.

إن الهند بوضعها المتميز تُذكرنا نحن - الغربيين - بأن ليس كل العالم يتمنى ما نتمناه، وليس كل العالم يريد أن يصبح مثلنا. أفكر مرة أخرى في أفغانستان وأدرك كم يصلح هذا لهذا البلد المنكوب. إن "المجتمع الدولي"، الذي يصل إلى هناك الآن بنقوده وجنوده، بنصائحه وبخبرائه، لن يكون هو الحل بالنسبة لأفغانستان، ولكن سيضيف إلى مشاكله مشكلة جديدة، حيث إن مستقبل البلد سيصبح مجرد انعكاس لأخيلة واهتمامات الغربيين وليس تطلعات الأفغانيين، كل الأفغانيين.

تركت كابول منذ أسبوعين لأنضم للاحتفالات مع العائلة في دلهي، ولكن ظل عقلي ورائي هناك. ما زلت أحتفظ في عيني بالمنظر الرائع من نافذتي المتربتين، ما زلت أحمل في أذني طنين الأصوات في البازار، وأذان المؤذنين للصلاة، وصراخ الصبية الذين يبحثون عن العملاء لسيارات الأجرة التي تنطلق في الطرقات التي تزداد خطورة كل يوم في الإقليم. أتصفح الكشاكيل المملوءة بالملحوظات، وبالقصص التي سمعتها، والتأملات التي قمت بها هنا وهناك. من بعيد، يبدو لي أكثر وضوحًا أن كل ما يحدث وسيحدث من هذه اللحظة في أفغانستان له في الواقع دخل بالاختلاف: مع الحق

(*) الأشرام هي المرحلة العمرية عند الهندوس، وعمر الإنسان أربع مراحل، تنتهي بالصانياسا وهي تبدأ من عمر ٧٢ عاما. (المراجع)

فى أن نكون مختلفين. منذ قرن، بالنسبة للأفغان، مثلما الحال بالنسبة لشعوب أخرى فى العالم، كان الاختلاف يكمن فى الاستقلال عن القمع الاستعمارى، اليوم يكمن فى البقاء خارج المنظومة الأكثر تطوراً، والقامعة بالطريقة نفسها، والتى تحاول أن تصنع من العالم سوقًا، ومن كل البشر مستهلكين لهم يبيعون لهم أولاً شهواتهم الخاصة ثم بعد ذلك منتجاتهم.

وراء كل مشروع إعادة بناء، وكل خطة إصلاح تمولها المساعدات الدولية فى أفغانستان يوجد سؤال لا يبدو لأحد الشجاعة الكافية ليطرحه بوضوح: ما نوع البلد الذين يريدون بناءه؟ بلد مثل بلدنا، أم مثل بلدهم؟ إن الخطر الكبير على الأفغان اليوم هو أنه فى حماس الحرية المستعادة فى الحلم، ينتهى بهم الأمر فقط بأن يحلموا مثلما نريدهم نحن - الغربيين - أن يحلموا وينتهى بهم الأمر بأن ينظروا إلى حياتهم بأعين من يقوم اليوم بإملائها عليهم. يكفى أن نضع فى اعتبارنا النسخة الحالية مما حدث منذ فترة قريبة فى أفغانستان لندرك أنها أصبحت بالفعل مملوءة بالالتواءات والأكاذيب: بعض منها قد زُرع بفن من القائمين على دعاية الحرب الأمريكية، وأخرى تلقائية وترجع إلى حقيقة أننا نعتبر الواقع هو ذلك الذى نتلقاه بحواسنا، والموجود فى أحكامنا المسبقة وأفكارنا الثابتة.

إن النموذج المثالى هو الصورة التى نقلتها هيئات الإعلام الغربية بصورة عامة عن الطالبانيين: كانوا فى غاية البشاعة (النسخة المسلمة للخمير الحمر لبول بوت)، ارتكبوا جرائم رهيبة ضد الإنسانية، وخاصة ضد النساء، لم يكن لديهم أى دعم شعبى، كانوا قوة احتلال أجنبية، أبقاهم الباكستانيون فى السلطة؛ إن وصول جنود التحالف الشمالى إلى كابول كان التحرير الحقيقى. أتذكر عنوان جريدة إيطالية يومية كبيرة، والتى كانت تقول فى ١٥ نوفمبر: "كابول: الكعوب العالية وأحمر الشفايف"، وأخرى كانت تحكى عن نساء خلعن براقيعهن وألقين بها بعيداً، وفى بعض الأنباء قمن أيضًا بحرقها.

إن هذا، كما يتضح، إطار يخدم تبرير العملية الحربية الأمريكية فى أفغانستان، واستمرار قصف القنابل التى تستمر فى إسقاط ضحايا من المدنيين ومطاردة الملا عمر، ومطاردة وزرائه وسفرائه، والذين، بالجرى خلفهم نسى أن يشرح أى "جرائم" ارتكبوا.

ولكن هل هذا وصف دقيق؟ ربما لا.

إن نظام الطالبانيين بالتأكيد نظام عشوائى وقمعى، لكن طلبة حفظ القرآن لم يكونوا سفاحين مجانين فى إطار الحرب المدنية، كان الطالبان، فى آن، ضحية ومرتكبى بعض المذابح (عام ١٩٩٨م، على سبيل المثال، تم وضع ٢٠٠٠ طالبانى وتصفيتهم فى مزار شريف، بعد مرور عام، وفى المكان نفسه وبدافع الانتقام، فعل الطالبانيون الشىء نفسه مع ألفين من الهزارا).

ولكن على عكس كابوجا البول بوت، فى أفغانستان فى أثناء حكم الملا عمر لم تكن هناك "معسكرات قتل"، ولم تكن هناك مستويات للتصفية من جزء أو آخر من الشعب، ولم تكن هناك أى محاولة لخلق "إنسان جديد"، وباستبعاد الشيوخ كان الجميع يرى الطالبان وكأنهم حماة للناس، الذين سيعيدون الأخلاق إلى الحياة الأفغانية، التى بالنسبة إليهم، قد لوثتها التأثيرات الغربية المتنوعة. لا يجب أن ننسى أن العمل العلنى الأول للطالبان، عام ١٩٩٤م، كان إعدام أحد قادة المجاهدين فى قندهار، والمتهم بأنه قد اختطف شابتين واعتدى عليهما، ثم إعدام قائد آخر متهم بأنه "تزوج" من صبى والذى كان يتباهى بعلاقته به حيث أخذه فى جولة وهو مزين بالزهور على دبابة وكأنه فوق عربة فى حفل زفاف.

توجد بعض الممنوعات الطالبانية، من نوع منع اللعب بالطائرات، حيث إن ذلك ينزع من الأطفال الوقت الذى يمكن قضاؤه فى حفظ القرآن، أو بعض القوانين الأخرى مثل تلك الخاصة بالحفاظ على الطول "الإسلامى" للذقن، والتى تبدو عبثية بوضوح. وأخرى أقل عبثية. الطالبانيون، على سبيل المثال، يسجنون لمدة أسبوع من يتم القبض عليه متلبساً بمشاهدة التليفزيون أو بسماع الموسيقى، وفى ذلك كان يوجد منطق: لم تكن أفغانستان تنتج أى شريط موسيقى، ولا أى برنامج تليفزيونى (والآن لا تنتج أفغانستان ولا حتى عيدان الثقاب)، ولذلك كان كل ما يمكن الاستماع إليه أو مشاهدته كان مستورداً - عادة من الهند- وذلك كان يُعد غير إسلامى، وكان يُنظر إليه على أنه مصدر للفساد. وهذا المنطق فى عمقه لم يكن يختلف كثيراً عن ذلك الذى فى الغرب لم يكن يريد أن يشاهد أبناؤه التليفزيون وكل البرامج العبثية وكل ما تقترحه من عنف وجنس.

فى صباح أحد الأيام ذهبت إلى المقر القديم لتليفزيون كابول، والذى كان قد استعاد الإرسال للتو. وكان اكتشافًا مذهلاً بالنسبة لى؛ كان المقر فى حالة ممتازة، لم يلمسه الطالبانيون، بل استمروا فى دفع الرواتب للتقنيين ليحافظوا على صيانة الأجهزة. بدا وكأنهم كانوا يتمنون أن يبثوا منه في يوم من الأيام برامجهم الخاصة. قام حلفاء الشمال بتشغيله مرة أخرى ولكن يفضل الناس التقاط قناة البى بى سى، وقنوات باكستان والهند.

كان إنتاج الأطباق الصناعية الفنية المصنوعة من عبوات الكوكاكولا أحد المشاريع العبقرية التى رأيت ولادتها وازدهارها بنفسى. فجأة أصبحت فى كل مكان، بينما العشرات من المحلات القديمة للكهرباء والمصابيح تحولت إلى محلات لبيع التليفزيونات وأجهزة الفيديو المُهربة من باكستان والهند. كانت التأثيرات فورية، وفى أحد الأيام، وأنا فى طريقى لتناول الطعام لدى خالد، سينما قديمة تحولت إلى مطعم، اضطررت لقبول، بإحباط، أن الاستعادة الجديدة للحرية قد عملت على إسكات العصافير التى كانت تغرد فى البداية فى الأقفاص الموضوعة بين الموائد، فقد كان المرتادون ذوو الذقون الكثيفة يجلسون أمام التلفاز ذى الصوت المرتفع جدا، مأخوذين بمشاهدة شريط الفيديو لامرأة ممشوقة القوام كانت تقدم الرقص الشرقى.

من وجهة النظر هذه كانت نهاية حكم طالبان، بالنسبة لكابول، فرحة صغيرة. بالإضافة إلى كروت البوستال الصغيرة لكابول، أصبح الباعة الجائلون يبيعون الآن أيضًا الصور الأحدث للممثلات الهنديات ونسخا من شرائط الكاسيت. أطلعنى صاحب مصنع صغير فى حى كوت باروبل، حيث ذهبت بالمصادفة محاولاً البحث عن شىء آخر، أطلعنى بفخر على المشتروات الجديدة التى سيجعل بها حياة عماله أكثر متعة: لوحتان ورقيتان لنجوم السينما وجهاز تسجيل والذى كان يذيع الموسيقى بشكل مستمر. كان "العمال"، فى حجرة صغيرة وباردة، هم خمسة عشر طفلاً- كان عمر أصغرهم سبعة أعوام، وأكبرهم ١٦ عامًا-، كانوا يعملون هناك ثمانى ساعات فى اليوم، أربعة وعشرين يوما فى الشهر مقابل مرتب قدره ٢٠٠٠ أفغانى (٠,٠٧ يورو) فى اليوم، أقل من المبلغ المطلوب لشراء رغيف خبز شاباتى، حيث يبلغ رغيف الخبز فى كابول ٤٠٠٠ أفغانى. لم يكن صاحب المصنع يعطى لأولئك الصبية أى طعام، ولا حتى مشروب ساخن من حين لآخر.

"ولكن هؤلاء محظوظون، إذ بإمكانهم البقاء على قيد الحياة"، هكذا أجابنى موظف فى منظمة إنسانية قصصت عليه الحكاية فى المساء. "إن الأطفال هنا يتساقطون موتى كالذباب منذ عدة أعوام، فى الوقت الذى تم تحطيم تماثيل بوذا فى باميان، مات عشرات وعشرات من الأطفال فى ذلك الوادى من الجوع بسبب الجفاف وبسبب المقاطعة الاقتصادية، ولكن كان المجتمع الدولى يبكى فقط على ما حدث للتماثيل"، استكمل حديثه. إن تدمير تماثيل بوذا كانت بالتأكيد أكثر التصرفات التى ارتكبها الطالبانيون استفزازية، والذى ساهم بشكل كبير فى تدعيم صورة نظامهم للعالم كنظام "مجنون"، و"مجرم".

من بين الجرائم الكثيرة الأخرى التى تم نسبها إلى نظام طالبان، توجد أيضًا عمليات البتر للأيدى وللأقدام لأشخاص متهمين بالسرقة، وبعض عمليات الإعدام العلنية، والتى من بينها الإعدام بطلقات الرصاص لبعض من النساء أيضًا. من المؤكد أن تلك المشاهد لم تكن مشاهد بناءة، ولكن لابد من النظر إليها فى إطار مجتمع، فقد كل شبه نظام، فى أثناء الحرب الأهلية، وبفضل الإعادة القاسية لتطبيق الشريعة، القانون القرآنى، عاد مرة أخرى ليشعر بالأمان. على حسب العديد من السكان الذين تحدثت معهم فى كابول، فى زمن طالبان لم يكن أحد يخشى من التعرض للسرقة، وكانت النساء يسافرن من ركن إلى آخر فى البلدة دون أن يخشين من التحرش، وكانت شوارع البلاد أكثر أمانًا.

إن تنفيذ الأحكام علنيا شىء يستنفره الضمير الغربى، ولكن هل عمليات الإعدام التى تتم من خلال الحقن فى داخل السجون الأمريكية أكثر تحضرًا؟ على الأقل، تبعًا للشريعة، إذا قررت عائلة الضحية العفو عن المحكوم عليه، يمكن أن يتم إطلاق سراحه، حتى فى آخر لحظة، على عكس ما يحدث للمحكوم عليهم فى تكساس، حيث يقوم جورج بوش بالتصديق على كل حكم بالإعدام يمر على مكتبه كمحافظ.

كانت الشريعة هى دائمًا قانون أفغانستان، حتى إن الدساتير المُعدلة فى محاولات متنوعة لتمدين الدولة كانت عليها أن تعترف بصلاحيتها، وخاصة فى إطار حقوق الأسرة والملكية. وسيشعر الكثيرون فى الغرب بالدهشة عندما يعرفون أن القضاة الذين عينتهم الحكومة الأفغانية الجديدة قالوا بالفعل إن مبادئ الشريعة لابد وأن تستمر أساسا للنظام القضائى فى البلاد.

فى هذه اللحظة ما زال القانون هو قانون السلاح، فكابول تكتظ بالرجال المسلحين، وفى المساء وقبل تطبيق حظر التجوال، يشعر الناس بالقلق أمام ظل رجل يحمل فى يده بندقية كلاشينكوف، لا يعرفون إذا كان لصًا أم رجل شرطة. بمجرد الخروج من العاصمة، فإن الوضع الأمنى ليس مطمئنًا فى أثناء النهار أيضًا. إن البلد فى يد رجال الحرب المختلفين، والذين يفرض كل منهم، بعصاباته المسلحة، إتاوات بطول الطريق. إن عدم الأمان الناتج من هذا النوع الذى وُلد من جديد من العصابات، والذين سبق لحكم طالبان أن قضى عليهم من خلال مصادرة جزء كبير من الأسلحة الموجودة فى يد المدنيين، تُضاف إليه اليوم خطورة القنابل الأمريكية التى يمكن فى أى لحظة أن تقع فى أى جزء من أركان البلدة.

فى بداية الحرب، وزع الأمريكيون، بسخاء كبير، تليفونات تعمل ببث القمر الصناعى إلى مختلف رؤساء القبائل والقادة الأفغان الذين كانوا يعدون بالثورة ضد طالبان، وتزويد الأمريكيين بالمعلومات المفيدة لقيادة الهجمات الجوية ضد رجال أسامة بن لادن والملا عمر. ولكن ما حدث – وما زال يحدث – أن بعض قادة القبائل هؤلاء كانوا يرسلون قاصفات القنابل الأمريكية لتضرب أعداءهم السياسيين أو قرى منافسيهم، بحجة أنهم يخبئون الطالبانيين، وبالتالى يقومون برفع عدد المدنيين الذين قتلوا "نتيجة خطأ". قام أحد القادة والذين تحركهم الصفقات باستخدام جواله ليعمل على أن يرسل له الأمريكيون بالباراشوت، مرتين على التوالى، كميات كبيرة من الطعام مؤكدًا أنه مسئول عن مجموعة كبيرة من الأشخاص الذين على وشك الموت جوعًا، ولم يكن هذا حقيقيا.

بالإضافة إلى الشريعة، كانت المسألة الثانية التى أسهمت فى الصورة السلبية لطالبان هى النقاب، كان لفرض طالبان لذلك الرداء – والذى يبدو فى أعيننا بشعا والذى يغطى المرأة من رأسها إلى قدميها، والذى أشعل لدرجة كبيرة خيال العالم الغربى، حيث بدا له أن تحرير المرأة من هذا الجوال الشبحى هو أحد أهداف الحرب الأمريكية فى أفغانستان، نوع من "المكاسب الجانبية" للقصف بالقنابل. كان انطباع العالم هو: بانتهاء طالبان، سينتهى النقاب. ولكن لم يسر الأمر على هذا النحو.

إن حشد البازار الذى كنت أراه كل يوم، من نافذتى الرائعة فى كابول، كان مكونًا من لونين؛ الرمادى البنى لمعاطف الرجال، والرمادى الأزرق، لمئات ومئات من

الأنقبة والتى ما زالت كل النساء – فعلاً كل النساء – يرتدينه. فى العشرين يوما التى قضيتها فى كابول، لم أر فى الطريق امرأة واحدة مكشوفة الوجه.

لن أتعب أبداً من تكرار تلك النقطة، بالنسبة إلينا ربما يبدو شيئًا غريبًا أن الآخرين لا يريدون أن يعيشوا ويأكلوا ويشربوا مثلنا، بالنسبة إلينا نحن – الغربيين – ربما يبدو لنا غريبًا وجود مجتمع يفضل تعدد الزوجات وفرض الإخلاص المطلق، بدلاً من زواجنا الأحادى المؤقت والتحرر الجنسى. يبدو لنا طبيعيا أن المرأة تريد أن تصبح مثل الرجل، وأن تلتحق بالجيش، والمحاماة، وقيادة الطائرات، وأنها ترغب فى أن تكون مستقلة اقتصاديا، بدلاً من أن تُكرس نفسها لتربية أولادها وتعليمهم وأن تملك فى بيتها.

إننا نحب أن نرى العالم كما نعرفه، وبالتالى لا نستطيع أن نتخيل تحرير كابول سوى تحرر من النقاب، إذا لم تقم النساء بإلقائه بعيدًا، نحثهم على ذلك بل ندفع إليهم نقوداً ليفعلوه، كما فعلت إحدى القنوات التليفزيونية ذلك، على ما يبدو.

إن ما ننساه هو أن النقاب ينتمى إلى عالم يختلف عن عالمنا، إلى ثقافة مختلفة. ننسى أنه – كالشريعة – له تراثه، وهو لا يتعلق إلا بالمظهر، ذلك الخارجى – الخاص بالملبس–، ويمبدأ أكثر شمولية بكثير، مبدأ البردة والخيمة، والتى فى المجتمع الإسلامى تفصل النساء عن الرجال: تفصل بينهما فى المسكن وفى المأكل وفى التعليم. تفصل بينهما، ولكنهم بذلك، حسب وجهة نظرهم، يعملون على حماية المرأة. ولأن النقاب هو أيضًا كذلك نوع من الحماية، رمز لضرورة عدم الاقتراب من المرأة فى بلد، حيث ما زال الطبيب فيه إلى يومنا هذا لا يستطيع الاقتراب من امرأة مريضة، وأنه فقط الأخ أو الزوج يمكنهما أن ينقلا إليه ما تشعر به من ألم. هكذا كما كان يحدث فى الصين، حيث نشأت التماثيل العاجية الجميلة للمرأة العارية، وكان السبب هو الإشارة إلى المناطق المؤلمة فى الجسم.

فى أفغانستان لا تلعب الطفلة لعبة تقليد الكبار الشهيرة بأن تسير فى المنزل مرتدية حذاء والدتها، ولكن بأن ترتدى النقاب وتحلم باليوم – الذى فيه – عندما تصبح امرأة – سيكون لها الحق فى ارتدائه. بماذا سنفكر نحن إذا حدث أن احتل المنتمون

للنزعة الطبيعية مجتمعنا، وكان علينا جميعًا أن نحتفل "بتحررنا"، وذلك بأن نسير فجأة في الطرقات عراة كما خرجنا من بطون أمهاتنا؟ أعرف أنه ليس جميع النساء في أفغانستان، وخاصة بالنسبة لمن تعلمن، ومن سافرن إلى الخارج، يفكرن في الأمر كذلك، ولكن هل يعرف أعداء النقاب أنه بالنسبة للسيدات في القرى الأكثر فقرًا يدل النقاب على رغد المعيشة؟

إن أي مجتمع تقليدي - من الهند إلى الصين، إلى اليابان وتركيا وإيران - كان لديه مشكلة الزي هذه عندما - أمام تحدي الغرب - اضطروا لمواجهة دراما تحديث عاداتهم. كانت ردود الفعل مختلفة من حالة إلى أخرى، ولكن كانت مشكلة الملبس نوعا من اختبار القوى - أكثر بكثير من كونها مسألة موضة أو "تحرر" - بين ماضٍ تم تجاوزه وبين مستقبل لا يمكن تجنبه. لأن هذا هو أساس كل ما حدث في أفغانستان منذ قرن في تلك الأنحاء، وبين ما يحدث الآن: صراع بين التراث والحداثة، الأول يتم النظر إليه بوصفه نوعًا من الإخلاص للماضي الأصولي الإسلامي، والثانية بوصفها إضافة للعلمانية ذات الطابع الغربي.

ليس محض مصادفة أن كل الثورات الأفغانية في المائة وخمسين عاما الأخيرة، بما فيها تلك الشيوعية، وبين كل الثورات المضادة، بما فيها تلك الطالبانية، كانت لها علاقة ما بالنقاب. أطاح انقلاب عام ١٩٢٩م بأمان الله، الملك لأفغاني الذي ما زال يتذكره الكثيرون بكل خير، وبدأ ذلك بقرار خلع الحجاب عن النساء.

وقصة الملك أمان الله خان مثيرة للاهتمام، حيث ليس من الصعب أن يرى المرء بعضًا من التوازيات لما يحدث اليوم. كان قد تولى الحكم عام ١٩١٩م، في أعقاب اغتيال أبيه، أصبح أمان الله بطلاً قوميا لأنه تحدى الإنجليز وهزمهم، والذين كانوا لا يزالون يطالبون بفرض الحماية على أفغانستان.

مستخدمًا نفوذه هذا، أطلق أمان الله أكبر برنامج تحديث- أي التحول للنزعة الغربية- عرفته البلاد. غير الدستور الأول، وأسس الجامعة الأولى، وأعاد هيكلة النظام القضائي، فتح المدارس للنساء، وأرسل العديد من الشباب الأفغاني ليدرسوا، ودعا مختلف الخبراء الأجانب لإصلاح الجيش والإدارة الحكومية. في أعقاب ذلك، وللاحتفال

بدخول أفغانستان ضمن الدول الملكية فى العالم، بدأ أمان الله ببناء مدينة جديدة فى دار ولامان، والتى فى مركزها مبنى عظيم جدا مقدر له أن يصبح البرلمان، والعديد من القصور على الطراز الأوروبى والتى كانت تتراص بطول شارع عريض تزينه الأشجار، وكأنه الشانزليزيه، وكان يربط بين كابول الجديدة الفخمة وكابول القديمة.

فى دولة يمنع فيها الإسلام كل تمثيل للحياة، وحيث لابد من تجنب صور الأشخاص والحيوانات، قام الملك أمان الله ببناء نافورات بأحصنة ومجموعات من الرخام على طراز برنينى. ومن بين التماثيل المتنوعة ذات الإيحاء الغربى الصرف، وفى بلد حيث النموذج المعمارى كان دائمًا ذلك المرتبط بالتراث الإسلامى- الفارسى، بنى أمان الله قوسًا للنصر، وأثرًا للجندى المجهول وعامودًا للمعرفة والجهل والذى فيه يلخص نظرته للعالم، فالمعرفة هى الحداثة، والجهل هو نزعة التراث المحلى، والمؤسس على الدين.

كان الأوروبيون متحمسين لهذا الملك الأفغانى المشابه لهم، وتم استقبال أمان الله، ومعه الملكة ثريا، فى أثناء رحلة مملوءة بالانتصارات بالنسبة إليه، بكل التكريم فى العواصم المختلفة وفى مختلف البلاطات الأوروبية، حيث حصل على اتفاقيات ووعود المساعدات من الجميع. تقريبًا كما يحدث اليوم مع حميد كرزاى، رئيس الحكومة المؤقتة الجديدة التى تم تشكيلها فى كابول.

إلا أن حداثة أمان الله لم تكن مقبولة ولا مؤيدة فى بلده، إن التمدن التدريجى للدولة وتنحية قادة القبائل والذين أجبرهم الملك على أن يتقدموا من اللويا جيرجا – اللقاء القومى الكبير – وقد حلقوا ذقونهم وارتدوا السترات والسراويل، والقبعات الكبيرة بدلاً من شيلانهم ورباط رأسهم التقليدى، أدى كل ذلك لأن يحولوا المقاومة السلبية للتقليديين إلى ثورة شعبية. ولكن كانت الصور الأوروبية للملكة ثريا وظهرها عار تمامًا، هى القشة التى قصمت ظهر البعير. إن الرؤساء الدينيين يتمسكون بأن كل البرنامج الإصلاحى للملك كان مناهضًا للإسلام، وأن الملك نفسه والملكة – التى قامت فى حركة مسرحية بنزع النقاب ودهسه بقدمها – قد تحولا إلى المسيحية، وبالتالى أصبحا من الكافرين. ولم يتمكن القمع وإعدام نحو خمسين من القادة الثائرين من إيقافهم. اضطر أمان الله أن يسرع بالهرب من كابول فى سيارته الرولز رويس، والتى

وصلت بـه بعد قليـل إلى إيطاليا، حيث قام الملك فيتوريو إيمانويلى، والذى أطلق عليه "ابن العم"، بمنحـه وسـام الشرف، واللجـوء السـياسى. ومـات أمـان الله فى رومـا عـام ١٩٦٠م.

وانتـقل عرش أمـان الله إلى فـلاح بسـيط لا يعـرف القـراءة والكتـابة "ابن أحد السقاة". وبعد تسعة أشـهر، تم الانقلاب عليه هـو أيضًا وشنقه قائد الجيش السابق فى نظام أمان الله، نادر شاه، والذى وعد بأن يعيد الملك إلى عرشه، ولكن فى النهاية فضل أن يجلس هو عليه. ولكن السـياسة فى أفـغانسـتان مـهنة تحفها المخـاطر، بعد أربعة أعوام، تم اغتيـال نادر شـاه أيضًا – وحدث ذلك بوصـفه عملاً انتقاميا من ابن الرجل الذى قام هو باغتياله– وجلس على العرش بعده عام ١٩٣٣م ابنه زاهير شاه، وهو الملك الذى عـاش منذ ثلاثين عـامًـا لاجئًـا بدوره فـى إيطاليـا، والذى كـانت آمـال المصـالحـة القـومـية تشـيـر إلى عـودته فى الأشـهر القادمـة، وإذا نـجـحت اتفـاقيـات بون، ونُفذت جميعها، سيقوم ذلك الرجل، والذى يبلغ من العمر الآن نحو التسعين، بالعودة ليرأس لويا جيرجا جديدة.

يصف أحد المشـاهد التى حضرتـها فى صبـاح أحد الأيام فى كابول جيدًا الوضـع البـائس الذى أدى إليه الصـراع العنيف بين التحديث والتقليد، فى خلفية الحروب ضد الغزاة الأجانب، للوضـع الذى عليه أفـغانسـتان اليوم. من خـلال اتبـاع الإرشـادات فى كتـاب قـديم يحـتوى على صـور منذ نـصف قـرن مـضـى، ذهبت لأرى مـاذا تبـقى من دارالمان، المدينة التى بناها الملك أمان الله. شىء مخيف: فقط هياكل الواجهات، عواميد مصطنعة منعزلة على طراز دورى وسط صـحراء من الرمـال والأنقـاض. جزء كبيـر من الدمـار حدث فى الفترة بين ١٩٩٢م و١٩٩٦م، عندما تمت مـحاربة المجموعات المختلفة من المجاهـدين فى هذه البقـعة، والجزء الأخيـر والأكبر من الدمـار تسبب فيـه قصف القنابل الأمـريكية فى الفـترة الأخيرة. كنت فـوق الدراجة وقادنى أحد الصـبيـة، لأرى مبنى يقول إن صـاروخًا قتل بداخله ١٢٠ عربيا، وهو يشير إلىّ لأن أسـير بحذر، فى خطوط مـتعرجة، بين أحجـار ملونة باللون الأبيض وشرائط من البلاسـتيك والتى تشير إلى مناطق حقول الألغام. وهناك، فى تلك الأرض المتدة والتى ما زالت خائنة، تضربها الرياح والشـمس، فى وسط الأنقـاض وفى طول الشـارع العريض التى كـانت تصطف، يومًا مـا، على جـانبيه الأشـجـار. كانت توجد مـجموعة من الفلاحين، تحرث الأرض

وتخطط الأرض بفرح، خلف حصان مربوط فى المحراث الذى يقلب الأرض. إنهم يزرعون الحبوب فى شانزليزيه كابول! من الأرض ستبدأ الحياة من جديد.

ستكون حياة - من الأفضل معرفة ذلك- يحكمها ذلك الصراع الأزلى بين الحداثة والتقليد، أو كما كان يفسره أمان الله، صراعًا بين "المعرفة" و"الجهل". للأسف هذا هو أيضًا تفسير ما يُطلق عليه "المجتمع الدولى"، والذى يرى نفسه وكأنه المعرفة التى أتت إلى أفغانستان لطرد الجهل، والذى يؤمن بأنه هو الحضارة التى أتت لكى تطرد الهمجية. ليس الأمر كذلك، وإلى أن نفهم أن ذلك الذى يحدث حاليًا فى أفغانستان، ولكن أيضًا فى جهات أخرى من العالم - وخاصة فى ذلك العالم الإسلامى - هو أيضًا صراع من أجل الاختلاف، فإن هذا الصراع سيستمر إلى الأبد.

كان الطالبانيون متبلدى الحس وقامعين، ووصل الطالبانيون إلى الحكم بالمساعدة الاقتصادية والعسكرية الباكستانية، ولكنهم كانوا أيضًا ظاهرة أفغانية، كانوا نتاج عشرين عامًا من الحرب، ثمار التاريخ القديم ذى الجذور الريفية. لم يكن الطالبانيون مرتزقة يحاربون بحثًا عن المال لصالح إسلام أباد أو أسامة بن لادن، بل هم رهبان محاربون، مترمتون ومتشددون، كرسوا أنفسهم لمهمة "إنقاذ" أفغانستان من خلال فرض نسخة مُبسطة، بدائية ومتشددة إلى حد كبير، للإسلام. فى هذا لم يكونوا الأوائل؛ بل كانوا العودة إلى الحياة لتلك القوى التقليدية القديمة، المناهضة للمدنية، المناهضة للغرب، على أساس دينى، والتى حاربها أمان الله، والتى بها اضطرت كل الحكومات الأفغانية أن تواجهها قبل أمان الله وبعده. إن هذه القوة يمثلها المعلمون والقادة الدينيون، والذين يرفعون الصلوات فى المساجد وخلفهم يركع المجتمع كله على ركبتيه، موجهًا عينيه إلى مكة.

إن الشيوخ، الذين يرتدون الأسود على الأبيض، كما كُتبت كلمات الرسول بالأسود فوق الورق الأبيض للقرآن، كانوا دائمًا مركزًا مهما للقوى فى أفغانستان. إنهم، فى الوقت نفسه، كهنة ومعالجون، قضاة ومعلمون، وكثيرًا ما يكونون مُلاكًا للأراضى، وكانت لهم دائمًا أدوار مهمة فى حياة البلد، وخاصة فى المناطق الزراعية.

كان الملا مسك العالم من أعلن الجهاد ضد الإنجليز فى القرن التاسع عشر، وكان المُلا لانج "الأعرج"، هو من قاد الانقلاب ضد الملك أمان الله ومات بين من تم شنقهم.

فى نهاية القرن التاسع عشر، اضطر الأمير عبد الرحمن للذهاب ليهدى، بالقوة، سكان كافيريستان، المقاطعة الأخيرة لأفغانستان والتى لم تكن قد انضمت بعد للإسلام، وذلك ليحصل على رضا الشيوخ ويفتتح المدارس الأولى والمستشفيات والمصانع الأولى، مصانع السلاح! ولكنه لم يقنعهم جميعًا، وأعاق الشيخ ماستون "المجنون"، عمله.

إن الشرعية التى كانت تأتى فى الغرب لحكام الماضى من الله، والتى تأتى الآن من الشعب، كانت وما زالت تأتى فى أفغانستان من الشيوخ. ذلك لأن البلد، على الرغم من أنه مقسم إلى أعراق يكره بعضها الآخر، ويتصارعون، ويقتل بعضهم الآخر، فإن لديهم عاملاً واحدًا يجمعهم، يبدو أن عليهم جميعًا تذكره: الدين، والإسلام.

كانت نوافذى التى تطل على كابول كنقطة مراقبة ممتازة ليكون المرء فكرة عن أهمية العامل المشترك. حيثما تنظر يُذكرك شىء ما بالإسلام، فى المنظر المقابل مأذنة، وجامع، وقبة مقام، وبين الرجال الحركات المستمرة للسبح وتوقفهم المستمر للصلاة. فى الميدان وأمام المبنى الذى أُقيم فيه، حيث كانت توجد نافورة فى وقت ما، بقى خط من الإسمنت والذى عليه فى كل ساعة من ساعات النهار يوجد شخص ما، رجل شرطة، صبى، بائع الزبيب أو جندى، ليفعلوا تلك الإيماءات الروتينية والركوع، والتى هى أيضًا تدريب رائع للتركيز والرياضة.

وفى ضريح أحد الأئمة القدامى حيث أمكث، كان يوجد صف طويل من الشباب والشيوخ يدخلون ليقبلوا الغطاء الأخضر الموضوع فوق القبر وكان كل واحد منهم يمسك بين يديه القرآن ملفوفًا فى منديل من قماش مُذهب اللون ويحكه على وجهه، ويقربه إلى أنفه، وكأنهم يرغبون فى استنشاق النعمة منه، قبل أن يلقوا بالنقود فى صندوق الهبات.

بشكل شخصى، فى كل مرة أجد نفسى فى بلد إسلامى أشعر بشىء من القلق. يلفت نظرى نوع من التضامن الذكورى غير العادى، وغير المعتاد لدينا، بل الجسدى إلى حد كبير جدا، وأشعر بالنفور من القسوة والصرامة، والغياب العميق للفرح والمتعة الذى يسيطر على الجوامع المتجردة، حيث يبدو أنه لا شىء - لا شىء أبدًا - يجب أن

يصرف انتباه الإنسان عن علاقته مع إلهه غير المرئى والبعيد، ولكنه المسيطر على كل شىء. إنها ديانة تثير قلقى شخصيا، ولكنها ديانتهم، بل ديانة بليون شخص.

من هذه الديانة ومن ممثليها من الشيوخ تأتى شرعية حركة طالبان. وليس محض مصادفة أن تنصيب الملا عمر بصفته قائدا روحيا، بالإضافة إلى القائد العسكرى والسياسى لجماعة طالبان، حدث أمام أعين الشعب الأفغانى، عندما ارتدى الشاب المجاهد فى قندهار، عام ١٩٩٤م، الخرقة، وهو الرداء المقدس والذى يُقال إنه كان من ممتلكات الرسول.

فى عام ١٧٦٨م أهدى أمير بُخارى الخرقة إلى أحمد شاه، مؤسس أفغانستان الحديثة، ذلك الذى استطاع للمرة الأولى أن يجمع الطوائف المختلفة ويمنح البلد صفة الدولة. وفى أثناء نقل الرداء إلى قندهار، حيث يُحفظ اليوم فى الجامع الذى بنى خصيصًا لهذا، مكث الرداء بضعة أيام فى كابول. أصبح الحجر الذى كان الرداء موضوعًا فوقه اليوم موضوعًا فى ضريح فى مزار دينى يسمى "مزار سخى"، والذى يشغل بقبتيه الزرقاوين الصغيرتين المرتفعتين نحو السماء، إحدى الهضاب التى تحيط بكابول. تبعًا للأسطورة فإن روح على، ابن عم الرسول وزوج ابنته، قد أتت فى تلك الأيام ليقدس هذا الأثر وأن أثر القدم الذى يظهر اليوم على الحجر، هو علامة لمروره.

أتذكر الآن ضريح مزار سخى كأكثر الأماكن التى شعرت فيها بالسلام والقوة فى كابول، ربما لأن أحد أكبر المقابر فى المدينة يمتد عند أقدام الضريح، بآلاف مؤلفة من الحجارة البسيطة، بلا أسماء، والتى تعكس ظلالها على الأرض، ربما لأنه فى الصباح الذى فيه ذهبت لهذا المكان لم يكن هناك سوى القليل من الأفراد وأطفال يلعبون بسرب من الحمام فى الممر.

ماذا عن القاعدة؟ ماذا كان يعرف الناس فى كابول عن تلك المنظمة؟ ماذا كانوا يعرفون عن أسامة؟ القليل. تبعًا لمختلف الأشخاص الذين تحدثت معهم، فإن اسم القاعدة قد عُرف بشكل فعلى فقط فى أعقاب الحادى عشر من سبتمبر، حيث منظمة بن لادن قد تم ذكر اسمها فى كل بث إذاعى للإذاعات الأجنبية باللغات المحلية، ثم أصبحت جزءًا من الأحاديث اليومية للجميع. وماذا عن العرب؟ "الطالبانيون كانوا

يقولون إنهم مجاهدون أجانب جاءوا لمساعدتنا ولذلك فهم ضيوفنا"، هذا ما يقوله الناس الآن. يوجد بعض العرب فى مناطق مختلفة من كابول، ولكن يعيشون بمفردهم، لا يختلطون بالشعب الأفغانى، لهم حياتهم الخاصة. لم يكونوا محبوبين، ومثل الأجانب بصفة عامة، ينظر إليهم الجميع بريبة.

ولكن يبقى واقع أن تلك الكلمة "ضيوف"، لها فى لغة الباشتون معنى مختلف عن معناها بالنسبة إلينا. لاحظ بالفعل مسافرو القرن التاسع عشر، ومسافرو القرن الماضى، كانوا يلاحظون "الميلماستيا"، واجب الضيافة حسب قانون الشرف الباشتونى، كان مهما جدا، إلى حد يصل بالمرء للتضحية بحياته ليحمى ضيفه. ولهذا لابد ألا نستبعد، على الرغم من أن الفكرة يمكن أن تبدو غريبة بالنسبة إلينا، أن الملا عمر، كالباشتون، مثل "المدافع عن الإيمان"، شعر بالواجب المضاعف المقدس القبلى- الدينى، بأن يمنح اللجوء والحماية "لضيفه" أسامة بن لادن، وللمجاهدين الأجانب.

يستحق الأمر أن نتذكر جيداً تاريخهم، عندما غزا السوفييت أفغانستان عام ١٩٧٩م، رأتها الولايات المتحدة مناسبة رائعة "لتوقع الدب فى الفخ"، ولإضعاف الاتحاد السوفييتى وللانتقام للخمسين ألف جندى الذين فقدتهم الولايات المتحدة فى أثناء الحرب مع فيتنام. ساعدت موسكو الفيت كونج وفيتنامى الشمال على إذلال الولايات المتحدة، ولذلك ساعدت واشنطن الأفغان لإذلال وهزيمة السوفييت. كان الأمر يتعلق بالعثور على من يستطيع، بجوار الأفغانيين، أن يحارب تلك الحرب عنهم. وهكذا عثر الأمريكيون على الأصولية الإسلامية، ليس بوصفها عدوا، ولكن بوصفها حليفا. مدفوعين بحملة دعاية لصالح الجهاد، والتى حركها الأمريكيون، فقدم ملايين من الشباب، من جميع أنحاء العالم الإسلامى، أنفسهم ليحاربوا "إمبراطورية الشر"، والتى وُصفت لهم بأنها "مناهضة للإسلام". وفى تلك العملية التى أطلقوا عليها اسم "عملية الإعصار" دعمت الولايات المتحدة ماديا، ودربت وسلّحت وجلبت إلى أفغانستان ٣٥ ألفًا من "المجاهدين الأجانب".

استمرت الحرب عشرة أعوام، وفى عام ١٩٨٩م، وبعد أن فقدوا ١٥ ألف جندى، انسحب السوفييت وحقق الأمريكيون هدفهم، وفقدوا بالتالى أى اهتمام بأفغانستان.

أغلقوا سفارتهم فى كابول وتركوا مجاهديهم الأجانب، والذين نجوا من عمليات الجهاد، يتصرفون بمفردهم. ووجد الآلاف من المصريين والسعوديين، واليمنيين والجزائريين، والشيشان والصينيين من شينجيانغ وغيرهم متروكين هكذا لمصيرهم.

لم يكن فى استطاعتهم العودة إلى بلادهم، لأنهم لم يكونوا فى أعين حكوماتهم محاربين محترمين، ولكن مجرد ثوار خطرين لابد من استبعادهم، ولم يكن بإمكانهم الذهاب إلى أى مكان آخر لأنه لم يكن هناك أى بلد آخر على استعداد لاستقبالهم (حاول البعض منهم العودة للحياة فى العالم العربى، ولكن تم سجنهم على الفور وفى أغلب الحالات تم اغتيالهم). لم يكن لدى المجاهدين الأجانب اختيار آخر سوى البقاء فى أفغانستان والانضمام لصفوف أسامة بن لادن. إن جهاده الجديد ضد الولايات المتحدة التى "تحتل الأماكن الإسلامية المقدسة، وتدعم إسرائيل ضد الفلسطينيين وتساند الأنظمة الفاسدة فى العالم العربى"، كان مقنعًا لكل من كان يشعر بأنه تعرض لخيانة مزدوجة من الأمريكيين فى تلك اللحظة. وهكذا نشأت "القاعدة" وهكذا أصبحت أفغانستان، "الدولة الإسلامية الحقيقية الوحيدة فى العالم"، كما عرفها الطالبانيون، بكل أولئك "الضيوف"، نقطة الالتقاء لكل الحركات الأصولية الإسلامية. الشىء نفسه حدث من قبل فى العشرينيات، بطريقة محدودة أكثر، ودون معسكرات التدريب، عندما قام الملك أمان الله، وبغرض القضاء على الزعماء الدينيين، باستضافة المحاربين الإسلاميين القادمين من بلاد مختلفة وخاصة من الهند البريطانية.

لا يمكن أن ننسى الجذور الأفغانية للوحدة الإسلامية، وليست مصادفة أن قبر جمال الدين الأفغانى، والذى يُعد أبًا لتلك الحركة الهادفة إلى ترسيخ الوحدة بين العالم الإسلامى، يقع فى وسط جامعة كابول، شبه المُدمرة حاليًا. وُلد الأفغانى عام ١٨٣٨م، وعاش جزءا كبيرا من حياته فى إيران ومصر وتركيا. كانت المسألة الجوهرية لفكره، والتى لم يظهر لها حل حتى اليوم، والتى تخص الإسلام: كيف يمكن الجمع بين الدين والحداثة.

كان الحل الذى اقترحه أفغانى هو اختيار المكتسبات من الإنجازات الغربية، ولكن الأهم من ذلك، هو وحدة كل البلاد الإسلامية فى العالم فى خلافة إسلامية ضخمة.

ربما استطاع أسامة بن لادن إقناع الملا عمر أن أفغانستان كانت هى دولة الخلافة المقصودة، وأن الأمر يتعلق بتوسيع رقعتها. إن العلاقة بين أسامة بن لادن

والقائد الروحى للطالبان هى بالنسبة لنا أمر غامض، ولكن من المحتمل أن يكون أسامة، لما لديه من ثقافة إسلامية أكثر دقة، ونظرًا لسنه وأصوله، وخبرته فى العالم، له تأثير كبير على الملا عمر.

ماذا عن القاعدة؟ لم يكن هناك - ولن يوجد- منظمة متجانسة ومتمركزة مثل الذى يريدوننا أن نصدق بوجودها الآن. إن المجموعات المنضمة إليها - ربما فقط بشكل غير رسمى- لها أصول وتاريخ متنوع.

على بعد خمس ساعات من كابول، وفى سجن لتحالف الشمال، يوجد اليوم نحو ٣٢٩ سجينا طالبانيا. اثنان منهم من الأويغور، أى ينتمون إلى أقلية عرقية تركية مسلمة، يسكنون منذ قرون فى المنطقة الغربية من الصين فى شينجيانغ. وقصة وجود شابين يبلغ أحدهما الثانية والعشرين من عمره والآخر الخامسة والعشرين وكيف انتهى بهما الأمر إلى هذا المكان، هى التالية.

نظرًا لأن الأويغور يتعرضون لتمييز عرقى، حيث لا يمكنهم دراسة لغتهم ولا حتى قراءة القرآن باللغة العربية، بدأت بعض العائلات، بمرور السنين، بإرسال أبنائها للتعلم فى مدارس باكستان، البلد التى تستمتع بعلاقة ممتازة مع الصين. لفترة من الزمن صار كل شىء على ما يرام. ثم أدركت الصين أن هؤلاء الطلبة أصبحت لهم ميول راديكالية، وطلبت من باكستان إعادتهم مرة أخرى إلى بلادهم. بمجرد عودتهم تعرضوا للاضطهاد؛ ١٣٢ منهم - حسب رواية السجينين - تمت محاكمتهم، البعض الآخر، منهم الاثنان موضوع الحديث، استطاعوا الهروب والذهاب إلى البلد الوحيد الذى منحهم اللجوء: أفغانستان. ولكن هناك أيضًا استمر الصينيون فى مطاردتهم. كانت حكومة بكين قد بدأت فى بناء سنترال تليفون جديد فى كابول، وهددت بأن تسحب كل التقنيين والمساعدات إذا لم يسلم الطالبانيون الشابين إليهم. رفض الطالبانيون، وأدوا كالمعتاد بما يمليه عليهم واجب الضيافة والذى بسببه رفضوا أيضًا تسليم أسامة إلى الأمريكيين، ولكن فى حالة الصينين عثروا على حل وسط، وعدوا بأن يضعوا الأويغور تحت السيطرة ويمنعوهم من استخدام الأراضى الأفغانية فى أى أنشطة مناهضة للصين. وهذا ما حدث فلقد ظل الطالبان الأويغور فى كابول عمليا فى السجون المحلية، وفقط عندما بدأ قصف الأمريكيين، أرسلهما الطالبانيون للمحاربة على حدود كوندوز، وهناك تم القبض عليهما.

ومـا سـيـحـدث الآن؟ ينتظر الاثنان أن يعـتنى أحـد بهـمـا. لكن من؟ وإلى أين سيرسلونهما؟ لا أحد يريدهما.

ومن خلال قتل أكثر من ٥٠٠ سجين فى قلعة مزار شريف، قامت قوات الجنرال داستـون (نائب وزير الدفـاع الحـالى فى حكومـة كـابول الجـديدة) ومـسـتـشـاروهم الأمريكيون والإنجليز بتجنب أن يطرح أحدهم مشكلة مماثلة.

يُفكر الأمريكيون بأنه ربما، من خلال القضاء على بنور كل الجهاديين الذين قاموا هم بزرعـهم، يمكنهم حل مشكلة الإرهاب. ولكن هذا لن يحدث إلا من خلال مواجهة المشكلات المتنوعة والطرق المختلفة التى جمعت بين أناس مختلفين تمامًا فيما بينهم مثل السعوديين والأويغور، والشيشان والجزائريين فى مكان مثل أفغانستان.

إن التحـالف الحـالى ضـد الإرهاب لا يؤدى إلا إلى تفاقم تلك المشكلات ويملأ الطريق، تجـاه أى تصـالح ممكن بين الصـينيـين والأقليـة المسلمـة، وبين الروس والشـيشـان، وبين العـالم الإسـلامى بصـفـة عامـة والغرب، بمزيد من عدم التسـامح والكراهية. وذلك دون الإشارة إلى التصالح الممكن بين مجموعات الأفغان المتنوعة.

اليوم كابول هى مدينة فى حالة من الاستنفار، مدينة فيـها، وبسبب الحرص المعتاد، يقول الناس ما يعرفون إنـه سيعجب مستمعهم الغربى: إن الطالبانيين غاية فى البشاعة، والتدخل الأمريكى موضع ترحيب. كنا نحتاج إلى شاعر مسن يبلغ من العمر فوق الثمانين، فهو شخص ليس لديه ما يخشاه وعثرت عليه مريضًا فى فراشه، ليكتب لى بقبضة يده باللغة الباشتونية، تلك الأبيات فى مفكرته:

فى الحديقة

جمعت بالمصادفة

عنبًا وقطعًا من قنابل.

أشكرك على الهدايا

يا جورج بوش.

إن حمام الدماء

فى أفغانستان

أصبح الآن ساخنًا.

فقط لأنه يعلم الناس بشكل أفضل انطلق فى الحديث وبدأ يقول بطريقة أكثر صدقًا فيما يفكر، إلى حد أنه أحيانًا ما كان يُظهر نوعا من الحنين الحقيقى لحكم طالبان: كانوا قساة ولكن أمناء، بسطاء، وبخلاء، يأكلون قليلاً وسيئًا، ولا يسرقون، و"يفكرون فقط فى الإسلام وفى الموت". إن الناس يدركون جيدًا جدا أن الحكام الحاليين موجودون فقط بفضل الأمريكيين والذين فتحوا لهم طريق كابول بصوت القنابل، يعرف أنهم الجنود أنفسهم الذين قاموا فى الماضى بتدمير ونهب وسرقة المدينة، ولا يثقون فيهم.

أحد السائقين الأفغان للأمم المتحدة حكى لى بأنه استمع إلى حوار بين بعض جنود حلف الشمال فى الأيام الأولى بعد الاستيلاء على كابول. كانوا فى غاية من الغضب حيث إنهم جاءوا معتقدين بأنهم سيقومون بنهب المدينة - كان لديهم بالفعل عنوان يتم شحن السيارات إليه- ولكن فى اللحظة الأخيرة تم منعهم بناء على أوامر من الأمريكيين.

ثم إن الناس يعلمون أن أمر طالبان لم ينته بعد، وأن الكثيرين منهم قد عادوا إلى قُراهم وعلى استعداد للظهور مرة أخرى، وآخرين، أقل تورطًا فى أوجه النظم القبيحة، أحرار فى كابول.

فى أحد الأيام ذهبت لأتحدث مع بعض الدارسين فى أكاديمية العلوم، عندما خرجت من مكتب نائب المدير - حجرة متربة بمدفأة من حديد الزهر بلا خشب وأوراق من البلاستك فى مكان زجاج النافذة -، ستة أو سبعة رجال فى منتصف العمر وحضور طاغٍ، بالذقون والعمامات وشالات عريضة بنية اللون مطرزة بالأخضر فوق أكتافهم، كانوا يجلسون فى انتظار الدخول. قال لى الرجل الذى كان يصحبنى أثناء نزولنا الدرج: "إنهم موظفون فى النظام الوزارى الطالبانى فى القسم الخاص بالحج".

كان يبدو لى أن أولئك الرجال أفغانى حقيقيون، أفغانيون فى تناغم مع الحشود فى السوق، فى تناغم مع الشيوخ الذين، فى أعقاب منع الطالبانيين، يوجدون من جديد فى كل يوم للمراهنة على الديوك المتصارعة فى الحارات الملتوية حول مسجد "بل خشتى"، فى تناغم مع أولئك الذين كنت أراهم يأتون للصلاة على الخط الإسمنتى أسفل نوافذى. إن أولئك "الطالبان" الذين لم يتركوا قط بلدهم، الذين عاشوا واشتركوا

فى كل أحداثها الدرامية فى الأعوام العشرين الأخيرة، كانوا يبدون لى أفغانيين أكثر من أفغانيى الشتات، المنفيين والذين بعد أعوام فى المنفى أراهم يعودون إلى كابول ليقدموا خبراتهم التى اكتسبوها من الغرب لإعادة بناء بلدهم. كانوا يرتدون ملابسهم كالأجانب، سراويل وسترات، وعادة يرتدون معاطف واقية للأمطار فى مدنية لا تمطر، وحتى إذا كانوا قد وُلدوا فيها، لا يجدون أى شىء مألوفًا، ولا يختلطون مع أحد. أحيانًا يكونون مثيرين للشفقة.

أدين لأحد هؤلاء المنفيين، الذى بفضل لغته الفرنسية الرائعة استطاع الحصول على عمل فى وزارة الثقافة التى تمت إعادتها، بأحد أكثر اللحظات المسلية فى أثناء إقامتى فى كابول.

التحقت فى صباح أحد الأيام بمجموعة من الدبلوماسيين الغربيين، أرسلتهم الوزارة ليفتشوا عن أدلة "الجرائم" التى ارتكبها الطالبانيون. كان الميعاد أمام معرض الفن الحديث، مبنى قديم ما زال فى حالة جيدة، بعيد بعض الشىء عن ضريح الملك ذى السيفين. شرح لنا الموظف الجديد الشاب الذى كان يعمل مرشدا أن وزارة الدفاع عن الفضائل ومحاربة الرذيلة نفسها فى نظام طالبان قد أتت إلى هنا منذ بضعة أشهر قبل القيام بعملية الإزالة. تجولنا فى الحجرات الأربع ولاحظنا فوق الجدران المساحات الفارغة للأعمال الفنية الغائبة، ثم، وأمام باب مختوم بورقة عليها توقيع الوزير نفسه، وقفنا ننتظر حتى يعثر أحد الحراس على المفتاح.

أخيراً قام رجل فى نحو الخمسين من عمره، ذقنه لونه أحمر كالحناء، يرتدى عمة وشالاً بنى اللون –هل ربما يكون هو؟ الوزير؟ – بكسر الأختام وفتح الباب. كانت توجد على الأرض، تكسوها التراب، نحو عشرين لوحة لمناظر تاريخية لجنود وأحصنة وثلاث لوحات نسيج كبيرة لسيدات بالحجم الطبيعى، شاردات وعاريات – عاريات تمامًا– يقمن بتجفيف أجسامهن أو ينظرن إلى جبل فينوس فى المرآة. انطلقت فلاشات الكاميرات لتغشى عيون الحراس المساكين الملتحين المجبرين على رفع اللوحات إلى أعلى، واستمر الموظف الشاب الناطق بالفرنسية فى الحديث قائلاً: جريمة بشعة ضد حرية التعبير فى حق الشعب الأفغانى"، واكتشف أحد الدبلوماسيين أن الرسومات كانت نسخًا أفغانية للوحات فرنسية تعود إلى بداية القرن العشرين، أما أنا فسيطر علىّ الضحك.

من بين أفغان الشتات أولئك الذين عادوا الآن إلى كابول - وبعض منهم أصبح بالفعل عضوا في الحكومة الجديدة - كان هناك أطباء ومهندسون ورجال أعمال يتمتعون بالخبرة، ولكن من الواضح أن أفغانستان التي يحلم أولئك بإنهاضها ستكون نسخة من بلاد الغرب التي أتوا منها، كما كانت نسخًا أيضًا للمباني والنافورات التي بناها الملك أمان الله. ستكون أفغانستان هذه "أفغانستان" تعجب المجتمع الدولي أيضًا وتوافق مصالحه. ولكن هل ستكون أفغان الأفغانيين؟

الآن جاء دور حميد كرزاي، رئيس الوزراء الجديد، للعثور على توازن بين كل تلك القوى. إنه رجل حقيقي وشجاع، شخص اشترك في كل مرحلة من مراحل التاريخ الحديث لبلده والذي لم يضع قط مسافة كبيرة بينه وبين أرضه. أُغتيل أبوه في باكستان، وأما هو، حيث كان وزيرًا للخارجية في حكومة المجاهدين، فلقد انتهى أمره بأن تم القبض عليه. استطاع كرزاي، في أثناء سجنه لدى حلف الشمال، الذي أصبح عمليا الآن وحليفًا لهم، الهروب والاحتماء في كيتا في باكستان. وعندما تولى الطالبانيون الحكم عام ١٩٩٦م، احتفظ كرزاي بعلاقات جيدة معهم، بل كان هناك كلام في فترة ما، عن احتمال أن يصبح هو سفيرهم في الأمم المتحدة، إذا قرر المجتمع الدولي، وهو الوضع الطبيعي وفقا لمعايير القانون الدولي، الاعتراف بحكومة طالبان، وليس حكومة حلف الشمال الذي تم استبعاده.

جاء موقف كرزاي المناهض للطالبانيين فيما بعد، عندما قام نظام المُلا عمر، ربما تحت التأثير المتزايد لأسامة، بالتحول ليصبح أكثر تشددًا. ويدين كرزاي بدين كبير للأمريكيين، فلقد أنقذوا حياته مرتين عندما دخل إلى أفغانستان في أعقاب بداية قصف القنابل، كاد الطالبانيون أن يقبضوا عليه. دعمه الأمريكيون، ولكن لم تكن تساعده كثيرًا صورته "بوصفه رجل الولايات المتحدة"، كما لم يساعده أيضًا واقع بأنه لا يستطيع أن يطلب من الأمريكيين أن يوقفوا القصف على البلد الذي يحكمه، نظريا، أو عدم قدرته على تقرير كيفية وكمية القوات الدولية التي يمكنه البقاء في كابول. إن كون المرء صديقا مُقربا من الأجانب ليس شيئًا محببًا في أفغانستان.

يقول الجميع إن الأجانب اليوم موضوع ترحيب في أفغانستان، هذا ليس حقيقيا؛ إن عداوة الأفغان تجاه كل من يعبرون، وخاصة بلا دعوة، بلادهم، هي عداوة قديمة وعميقة.

كتب أحد المؤلفين الأمريكيين، عن لقاء له في رحلة قام بها إلى أفغانستان عام ١٩٢٥م، "خلف ممر خيبر"[1]، مع مؤرخ أفغاني قال له: إنك أجنبي، وستملأ بلدنا بالآلات والدخان، ستصنع لك مفاتيح مماثلة وستتحكم وتحطم الدين الحقيقي.. ليس أنت، يا صديقي، ولكن القدر الذي تحضره خلفك". ذلك الرجل عام ١٩٢٥م لم يكن من طالبان، ولا يتطلب الأمر أن يكون الشخص من حركة طالبان اليوم ليفكر بالطريقة نفسها. كانت هذه هي الطريقة التي بها يُنظر إلى الأجنبي في أفغانستان، والأجانب الذين رآهم الأفغان يصلون إليهم لسبب أو لآخر، بهذا الزي أو غيره، كانوا بالفعل وبلا استثناء هكذا؛ مشكوكا فيهم بأنهم يريدون إحضار بعض التحديث غير المقبول، أو متهمين بعمل دموي يتطلب الانتقام.

لقد رأيت موقفًا، موقفا صغيرا، بعيني. كنت قد ذهبت لألقي بنظرة على مستشفى الميدان الذي يعمل الروس على إقامته في كابول، ليكون لهم هم أيضًا بالطبع سبب وجيه للوجود في العاصمة الأفغانية، ليراقبوا عن قرب ما يفعله الأمريكيون. كان جنود موسكو القائمون على حماية المدخل صبية صغارا، لم يكن معهم مليم واحد، ولم يرفضوا أن يقدم لهم أحد سيجارة. كاد أحدهم يبدأ في إشعال سيجارة، كان قد أعطتها له مجموعة من الصبية الصغار، عندما صرخ الحارس الأفغاني الواقف بجواره فيه قائلاً: توقف، توقف. بينما يضحك الصبية ويهربون مبتعدين، فتح الأفغاني السيجارة، وفي وسط التبغ كان هناك مسحوق متفجر.

أحداث مثل هذه تجعل المرء يُفكر، بأنه بمرور الوقت، وإذا استمر القصف بأعداد القتلى نتيجة "الخطأ"، وإذا استمر الأمريكيون في رغبتهم في القبض على كل الطالبانيين – القادة والوزراء أو السفراء – ورغبتهم في "التحقيق معهم" فوق متن سفينة ما في عرض البحر، أو في قاعدة جوانتانامو في كوبا لمحاكمتهم، لا أحد يعلم على أي جريمة، سيكون جنود حفظ السلام هم أيضًا هدفًا للانتقام. بالنسبة لسكان كابول، وبالأحرى أيضًا لمن يعيشون في الريف الأفغاني حيث تسوي القنابل قرى

(1) Beyond Khyber Pass by Lowell Thomas, Vintage HB, 1925, 1st Edition Century Co.

بأكملها بالأرض، وتُدمر الحقول وتغير مناظر الجبال، منتزعة قممها، فإن أولئك الجنود الأجانب الذين يحرسون الطرقات لا يختلفون عن الذين يجلسون بداخل مقاتلات البى-٥٢ ربما لهذا السبب قال الإنجليز بالفعل، والذين لم يرغبوا فى الذهاب مع من ذهبوا فى البداية إلى أفغانستان، بأنهم يريدون الانسحاب خلال ثلاثة أشهر، ليتركوا الكرة الملتهبة فى يد آخرين.

إذا تمت المصالحة بين الأفغان، وفقط إذا استطاعوا الاتفاق فيما بينهم، أى بين الأفغان - أولئك المنتمون لحلف الشمال، ومن عادوا من المنفى، ولكن والطالبان أيضًا - بلا أى ضغط أجنبى ونصائح خارجية، إذا اتفقوا جميعًا على النمط الأفغانى الذى يريدون تطبيقه، عندئذ فقط يمكن للبلد أن يمسح كل حسابات الثأر القائمة حاليًا. ولكنه عمل شديد الصعوبة.

لقد فهم ذلك شخص عظيم ينتمى لهذا القرن؛ بدشاه خان، "غاندى الجبهة"، "الجندى المسلم الداعى للسلام"، أفغانى من بيشاور والذى انضم فى ريعان شبابه لحركة غاندى، وكرس حياته كلها ليقنع أهله، الباشتون، أحد أكثر الأعراق ميلاً للحروب فى الأرض كلها، بأن يتخلوا عن العنف وعن ميثاق الشرف العتيق والذى يفرض على كل واحد منهم "البدل"، أى فرض الانتقام بالدم أمام أى عمل دموى، أو حتى فى مقابل أى إهانة توجه لجنسهم، أو للقبيلة أو للعائلة، إنه قانون الثأر الذى لطخ منذ قرون التاريخ الأفغانى.

استطاع بدشاه خان أن يكوِّن جيشًا من مائة ألف رجل، "خدام الله"، والمكرسين لعدم العنف. على رأس أولئك الجنود، غير المسلحين، اشترك بدشاه خان فى الصراع المناهض للإنجليز من أجل الحصول على الاستقلال. وجه لا يمكن نسيانه، قوى، أنف كبير، طوله ضعف طول المهاتما تقريبًا، كان بدشاه خان يقف بجوار غاندى فى كل معاركه العظيمة، وآخرها كانت المعركة ضد تقسيم القارة إلى الهند وباكستان. فقد كان هو، على الرغم من كونه مسلما مخلصا، لا يؤمن بفكرة الدولة المقامة على فكرة الدين فقط. لم يكن يؤمن أيضًا أن الباشتون كان يجب أن يقبلوا خط دوران، تلك الحدود المصطنعة التى وضعها المستعمر البريطانى، والذى كان يؤدى بهم، كما هو حالهم اليوم، للانقسام، فجزء منهم فى باكستان والجزء الآخر فى أفغانستان. لهذا،

عندما مات عام ١٩٨٨م، عن عمر ناهز الثامنة والتسعين، وبعد أن قضى ثلث حياته فى سجون الإنجليز أولاً ثم فى السجون الباكستانية، أراد أن يتم دفنه فى جلال آباد. بينما كانت أفغانستان، المحتلة عندئذ من السوفييت، فى قلب الحرب الضارية، استمر على فراش الموت فى ترديد أن اللاعنف هو الشكل الوحيد الممكن للدفاع، والطريقة الوحيدة لإنقاذ العالم.

كانت رسالته الأخيرة هى سؤال بسيط: لماذا لا يزالون ينتجون أسلحة الدمار الشامل؟

إنه سؤال ما زال حتى اليوم يحمل الكثير من المعانى. سؤال يجب أن تجيب عليه، قبل الجميع، بلاد مثل الولايات المتحدة والتى، على الرغم من أنها تنتج باستمرار هذا النوع من الأسلحة - بالإضافة إلى الكميات الكبيرة فى مستودعاتها-، تهدد فى كل لحظة بالهجوم على دولة مثل العراق، لأنها تشك فى أنها ترغب فى أن تفعل المثل؛ تنتج أسلحتها.

إن مشكلة مثل مشكلة التسلح هذه ليس لها سوى حل واحد؛ تدمير كل الأسلحة الموجودة والتوقف عن إنتاج المزيد. بهذه الطريقة فقط لن يمكن لأى دولة استخدامها، بهذه الطريقة فقط لن يتمكن أى إرهابى من امتلاكها، سواء كان إسلاميا أم لا، كما فعل مواطن أمريكى، لم يعاقب حتى الآن، بميكروب الجمرة الخبيثة.

يتذكر القليلون جدا بدشاه خان وحياته التى كرسها - دون أن تكلل بالنجاح- للسلام. ولكن هذا لا يثير الدهشة؛ فلا أحد تقريبًا، فى الهند نفسها، يتذكر كما ينبغى معلمه الروحى غاندى، وما سبق ذلك الشخص العظيم أن بشر به سواء بحياته أو بموته.

إن الهند الذى أراد غاندى أن تصبح مثالاً لعدم العنف بالنسبة لباقى العالم، الهند التى كان يعتقد بأنها تستطيع أن تحمى نفسها بلا جيش، ولكن ببساطة بقوة الساتياجراها، قوة الحق، تلك الهند لديها اليوم مئات الآلاف من الجنود بالدبابات وقطع السلاح وبالطائرات الحربية والأسلحة النووية، والمحتشدة من جديد ضد الجزء الآخر منها؛ أى باكستان.

إن ضريح غاندى، المكان المخصص لتخليد ذكراه على بعد ستة كيلومترات من منزلى فى راجـاث، فى سهل مكشوف تركه الإنجليز، فى أثناء بنائهم لنيو دلهى، فارغًا تمامًا ومفتوحًا، تحسبًا لحالة يمكن أن تضطر مدافعهم فيها أن تنطلق فى تجاه دلهى القديمة إذا حاول أى شخص المسير منها تجاه العاصمة الجديدة. شعرت بأننى أرغب فى العودة إليه هذا الصباح.

وفى حزام من الحجارة الوردية يوجد مرج أخضر كبير فى وسطه، فى المكان الذى فيه تم حرق جسد المهاتما، تشتعل الآن شعلة مستديمة. كل شىء مهمل وقذر. لا توجد أزهار فى الأحواض ولا مياه فى الأوانى الممتدة بطيلة الممشى. لم يعد غاندى هناك، ولا روحه. على الرغم من تردد السياح والشخصيات المهمة التى تزور الهند على المكان، فإن الأمر يبدو وكأن المكان وما يمثله لم يعودا حسب الموضة.

فوق المنصة، البسيطة جدا، غير المزينة، والمصنوعة من الرخام الأسود والتى وضع أحدهم عليها باقة من الأزهار، تظهر كلمتان بالهندية: "Hei Ram" يا إلهى! وهو ما نطقه غاندى عندما أصابته رصاصة قاتله. وكأن البابو، الأب، يردد العبارة نفسها اليوم، إذ نسيت الهند أن تحنو حنوه، وبذلك قتلته للمرة الثانية: يا إلهى!

خطاب من الهيمالايا

ما العمل؟

فى الهيمالايا الهندية، ١٧ يناير ٢٠٠٢م

يسعدنى أن أكون فى جسد قد شاخ الآن. يمكننى بذلك أن أنظر إلى الجبال دون أن تكون لدى الرغبة فى تسلقها. عندما كنت شابًا كنت أرغب فى الاستيلاء عليها. الآن يمكننى أن أدعها تستولى علىّ. إن الجبال، مثل البحر، تقدم مقياسا للعظمة والتى يشعر الإنسان أمامها بالإلهام والراحة. إن هذه العظمة نفسها توجد أيضًا بداخل كل واحد منا، ولكن يصعب التعرف عليها. ولهذا نشعر بالانجذاب نحو الجبال. لهذا السبب، وعلى مر العصور، جاء العديد من الرجال والنساء إلى هنا إلى الهيمالايا، آملين فى أن يجدوا فى تلك المرتفعات الإجابات التى تستعصى عليهم فى أثناء مكوثهم فى السهول. وما زالوا يأتون.

فى الشتاء الماضى، وأمام ملجئى، عبر أحد الصنياسين الشيوخ، مرتديًا ملابسه البرتقالية. كان يصحبه أحد تلاميذه، هو أيضًا من المتخلين.

سألته: أين تذهب يا مهراجا؟

أجابنى، وكأنه يتحدث عن أكثر شىء وضوحًا فى العالم: بحثًا عن الله.

أحضر أنا إلى هنا، مثلما فعلت هذه المرة، بحثًا عن محاولة ترتيب الأشياء فى ذهنى. إن انطباعات الشهور الأخيرة كانت قوية جدا وقبل أن أرحل من جديد، قبل أن "أنزل مرة أخرى إلى السهل"، أحتاج إلى الصمت. فقط بهذه الطريقة يمكننا أن نصغى للصوت الذى يعرف، الصوت الموجود داخل كل واحد منا. ربما يكون مجرد صوت العقل بداخلنا، ولكنه صوت حقيقى.

إن الجبال كريمة دائمًا. تهدى إلىّ لحظات شروق وغروب لا يمكن تكرارها، لا يقطع الصمت سوى أصوات الطبيعة، والتى تمنحها حيوية أكثر.

إن الوجود هنا غاية فى البساطة، أكتب جالسًا على أرضية خشبية، يغذى لوح شمسى حاسوبى الصغير، أستخدم المياه القادمة من نبع تشرب منه أيضًا حيوانات

الغابة – وأحياناً يكون بينها نمر– أطهو الأرز والخضروات على موقد من الغاز، وأحترس من أن ألقى عود الكبريت الذى استخدمته. هنا كل شىء له فائدة، لا توجد فضلات، وسرعان ما يتعلم المرء أن يمنح قيمة جديدة لكل شىء صغير. إن البساطة مساعد كبير فى التنظيم.

أحياناً أتساءل إذا كان الشعور بالإحباط، والعجز الذى يشعر به الكثيرون، وخاصة بين الشباب، فى مواجهة العالم الحديث يرجع إلى واقع أنه يبدو معقداً لهم إلى حد كبير، يبدو صعب الفهم حتى يصبح رد الفعل الوحيد هو تصديق أنه عالم شخص آخر: عالم لا يمكن للمرء أن يتدخل فيه، عالم لا يمكن تغييره. ولكن ليس الأمر كذلك، فالعالم ملك للجميع.

إلا أن المرء، أمام تعقيدات الآليات غير الإنسانية – والتى يديرها شخص لا نعرفه من مكان لا نعرفه – يشعر المرء بأنه فاقد للاتجاه، يشعر بأنه ضائع، وينتهى به الأمر بأن يقوم بواجبه الصغير فى العمل، بالواجب الذى أمامه، دون أن يعطى أى اهتمام لأى شىء آخر، ويزيد بذلك من عزلته، من شعوره بعدم النفع. لهذا السبب، من المهم فى رأيى، أن نعيد كل مشكلة إلى أصلها. إذا طرح المرء على نفسه أسئلة عميقة، فإن الإجابات عليها ستكون يسيرة.

نريد إلغاء التسلح؟ حسناً: دعونا لا نبدأ فى المناقشة حول أن فكرة إغلاق مصانع البنادق، أو ذخيرة الألغام عدوة الإنسان، أو القنابل الذرية، ستخلق نسبة كبيرة من البطالة. لنحل أولاً المشكلة الأخلاقية. إن المشكلة الاقتصادية يمكن مواجهتها فيما بعد. هل نريد ذلك بالفعل، أم أننا قبل حتى أن نحاول، نستسلم إلى واقع أن الاقتصاد يحدد كل شىء، وأن ما يهمنا هو فقط ما يفيدنا؟

يقولون إن الحروب موجودة منذ بدء التاريخ ولهذا ما زلنا موجودين.

وكان غاندى يُجيب من كان يعارضه مستخدماً هذا العذر المعتاد والعجيب: ولكن لماذا يجب أن نعيد التاريخ القديم؟ لماذا لا نحاول أن نبدأ تاريخاً جديداً؟

فكرة أن الإنسان يمكنه كسر ماضيه والقيام بقفزة تطورية فى النوعية كانت شيئاً دارجاً فى التفكير الهندى فى القرن الماضى. والموضوع بسيط: إذا كان الإنسان

العاقل، والذى نحن عليه اليوم، هو نتيجة تطورنا عن القردة، لماذا لا نتخيل أن هذا الإنسان، بتغيير جديد، يتحول إلى شخص أكثر روحانية، أقل ارتباطًا بالمادة، أكثر التزامًا فى علاقته مع قريبه وأقل جشعًا فى علاقته بباقى العالم؟

ثم إنه، نظرًا لأن هذا التطور له علاقة بضميرنا، لماذا لا نجرب نحن، الآن، بوعى، أن نخطو الخطوة الأولى فى ذلك الاتجاه؟ لا توجد لحظة مناسبة أكثر من هذه اللحظة نظرًا لأن الإنسان العاقل قد وصل حاليًا إلى أقصى قدراته، بما فى ذلك قدرته على تدمير نفسه بتلك الأسلحة التى اخترعها هو، مستخدمًا القليل من عقله.

لننظر إلى أنفسنا فى المرآة. لا شك أنه فى خلال القرون الأخيرة تقدمنا كثيرًا جدا. لقد استطعنا أن نطير مثل الطيور، وأن نغطس تحت المياه مثل الأسماك، وصعدنا إلى القمر وأرسلنا أقمارًا صناعية لمارس. حتى أننا أصبحنا الآن قادرين على أن نستنسخ الحياة. لكننا، على الرغم من كل هذا التقدم، لسنا فى سلام مع أنفسنا ولا مع العالم حولنا. لقد دهسنا الأرض، ولوثنا الأنهار والبحيرات، قطعنا غابات كاملة وحولنا حياة الحيوانات إلى جحيم، فيما عدا القليل منهم والذين نطلق عليهم "أصدقاءنا" والذين ندللهم حتى يُشبعوا احتياجنا لبديل عن الصحبة الإنسانية.

إن الهواء والماء، الأرض والنار، والتى رأتها الحضارات القديمة كونها عناصر أساسية فى الحياة – ولهذا فهى مقدسة – لم تعد كما كانت، قادرة على أن تتوالد من جديد بطريقة طبيعية منذ أن نجح الإنسان فى السيطرة عليها والتحكم فى قوتها لأهدافه الخاصة. لقد تلوثت براءتها المقدسة. لقد تم الإخلال بالتوازن.

إن التطور المادى الكبير لم يسر على قدم المساواة مع ذلك الروحى. بل ربما، من وجهة النظر هذه، لم يصبح الإنسان مسكينًا بهذه الطريقة، إلا منذ أن أصبح بهذا الثراء. ومن هنا فإن الفكرة هى أن يغلب الإنسان، بوعى، هذا الميل ويستعيد السيطرة على تلك الأداة الرهيبة والتى هى عقله. إن ذلك العقل، والذى حتى الآن يتم استخدامه قبل كل شىء فى معرفة العالم الخارجى والسيطرة عليه، وكأنه هو المصدر الوحيد لسعادتنا الغائبة، لابد أن يتوجه أيضًا نحو اكتشاف العالم الداخلى، نحو معرفة الذات.

هل هذه هي مجرد أفكار مسكينة لفقير جالس على فراش من المسامير؟ على الإطلاق. إنها أفكار تدور منذ فترة في العالم، بطريقة أو بأخرى، وبلغات عدة. إنها أفكار شائعة في العالم الغربي حيث قام النظام، الذي تتوجه تلك الأفكار إليه نظريا، بابتلاعها، صانعًا منها "منتجات" لسوق متسعة للغاية "بديلة" تبدأ من دورات تعليم "اليوجا" إلى تعليم التأمل ومن العلاج بالعطور إلى "الإجازات الروحية" لكل المحبطين، وسباق خلف الأرانب البلاستيكية للحصول على السعادة المادية. إن تلك الأفكار تدور في العالم الإسلامي، الواقع بين التقليد والحداثة، حيث يعيدون اكتشاف المعنى الأصلي للجهاد، والذي ليس فقط الحرب المقدسة ضد العدو الخارجي، ولكنه قبل كل شيء الحرب المقدسة الداخلية ضد الغرائز والشهوات الأكثر انحطاطًا لدى الإنسان.

لذلك لم يقل أحد إن التطور الإنساني تجاه الأعلى مستحيل. إن الأمر يتعلق بألا نستكمل بلا وعي في الاتجاه الذي نسير فيه حاليا. إن هذا الاتجاه مجنون، مثل جنون حرب أسامة بن لادن وحرب جورج دابليو بوش. إن الاثنين يتحدثان عن الله، ولكنهما مع ذلك لا يضفيان أي قداسة على جرائمهما.

لنتوقف إذن، لنتخيل لحظتنا الحالية على أنها مستقبل أحفادنا. لننظر إلى اليوم من وجهة نظر الغد لكي لا نندم غدًا على أننا خسرنا فرصة جيدة. والفرصة هي أن نفهم مرة واحدة ونهائية بأن ما لدينا هو عالم واحد، وأن لكل جزء فيه معناه، وأنه لا يمكن أن يحل منطق المنافسة محل أخلاقيات التعايش المشترك، وأنه لا أحد يمكنه احتكار كل شيء، وأن فكرة وجود حضارة أعلى من أخرى هي مجرد نتيجة للجهل، وأن التناغم، مثل الجمال، يكمن في التوازن بين التضادات، وأن فكرة استبعاد أحد من الاثنين هي ببساطة "تجديف". كيف سيكون النهار بلا ليل؟ والحياة بلا موت؟ أو الخير إذا استطاع بوش، كما وعد، بأن يمحو الشر من العالم؟

إن ذلك الجنون بالرغبة في قيادة كل شيء لنوع من التجانس هو جنون غربي إلى حد كبير. كان فيفيكاناندا، المتصوف الهندي العظيم، يسافر في نهاية القرن التاسع عشر إلى الولايات المتحدة ليعلم الهندوسية. وفي سان فرانسيسكو، في نهاية أحد المؤتمرات، نهضت سيدة أمريكية وسألته: ألا تعتقد أن العالم سيكون أجمل بكثير إذا كانت هناك ديانة واحدة فقط لكل الناس؟ أجابها "فيفيكاناندا": لا، لا أعتقد. ربما كان سيكون من الأجمل أن تكون هناك ديانات بعدد البشر.

ومكتوب فى بداية أحد الأعمال الكلاسيكية للأدب الصينى "رواية الممالك الثلاث": إن الإمبراطويات تنمو، والإمبراطوريات تضمحل. سيحدث هذا أيضًا للإمبراطورية الأمريكية، كلما ازدادت فى محاولة فرض القوة الغاشمة لأسلحتها، المتطورة جدا الآن، بدلاً من استخدام قوة القيم الروحية والمثالية والتى مصدرها هم آباؤها المؤسسون أنفسهم.

إن أول من أدرك بأننى عدت إلى "فوق" كانا غرابين مسنين، واللذين كانا فى كل صباح، وفى وقت الإفطار، يجلسان على الدويدار، شجرة الله، شجرة حمضيات ضخمة، أمام منزلى ويبدآن فى النعيق بأعلى صوتيهما حتى يأخذا ما تبقى من الزبادى الذى أتناوله - والذى تعلمت أن أصنعه لنفسى- وحبات الأرز الأخيرة فى طبقى.

حتى إذا أردت، لا يمكننى نسيان وجودهما، وبقصة يحكيها الهنود لأطفالهم بخصوص الغربان. كان هناك شخص يجلس، مثلى، أسفل شجرة فى حديقته، وفى أحد الأيام لم يعد يحتمل نقيق الغربان. استدعى خدمه الذين أخذوا يطردونهم بقذفهم بالحجارة. ولكن الخالق، الذى استيقظ فى تلك اللحظة من استراحة صغيرة، أدرك على الفور أن الحفل الموسيقى العظيم للكون ينقصه صوت، فاستشاط غضبًا، وأرسل على الفور أحد مساعديه ليعيد الغربان فوق الشجرة.

وهنا، وحيث يعيش المرء طبقًا لإيقاع الطبيعة، فإن معنى أن الحياة واحدة، وأنه لا يمكن، بحصان، إضافة أى شىء أو نزعه، فهذا أمر عظيم. إن كل شىء مرتبط بما حوله، كل جزء هو الكل.

"ثيتش نهات هانه" الراهب الفيتنامى، يشرح هذا جيداً فيما يتعلق بطاولة، طاولة صغيرة ومنخفضة مثل تلك التى أكتب عليها الآن. إن الطاولة موجودة هنا بفضل سلسلة طويلة من الأفعال، ومن الأشياء والأشخاص: الأمطار التى سقطت على الغابة حيث كبرت الشجرة والتى قطعها الحطَّاب ليعطيها للنجار الذى جمعها بالمسامير التى صنعها الحداد بالحديد المُستخرج من المنجم... إذا نقص عنصر واحد فقط من هذه السلسلة عن الوجود، لما كان لهذه المائدة الصغيرة وجود.

كان اليابانيون، عندما كنت فى بلادهم، يفكرون فى حماية طقس جزرهم بالتوقف عن قطع الغابات اليابانية، ولكن بالذهاب إلى قطع أشجار إندونيسيا وغابات الأمازون.

إلا أنهم سرعان ما أدركوا أن هذا أيضًا سيؤثر فيهم، إن طقس العالم يتغير بالنسبة للجميع، بمن فيهم اليابانيون.

بالطريقة نفسها، لا يمكن التفكير بأن الاستمرار فى ترك جزء كبير من العالم يعانى من الفقر، لكى نحتفظ بالجزء الخاص بنا غنيا. إن آجلاً أم عاجلاً، بطريقة أو بأخرى، سيتم تقديم الحسابات، سواء حدث ذلك من الناس أو من الطبيعة نفسها.

هنا، "فوق"، الشعور بأن الطبيعة لها وجودها المادى، شعور قوى جدا. أحيانًا عندما يتدثر كل شىء محتميًا من البرد، أتوقف لأراقب، وأنا جالس على صخرة، شعاع الشمس الأول الذى يشعل قمم الثلج ويرفع ببطء حجاب الظلام، مظهرًا بذلك سلاسل ووراءها سلاسل أخرى من جبال أخرى ذات خلفية بيضاء للأودية، يمنح هذا كله فرحًا قويا يغمر العالم وأنا أيضًا أشعر به يغمرنى، بالاشتراك مع الأشجار والطيور والنمل، إنها الحياة نفسها بأشكال مختلفة ورائعة.

إن شعورنا بأننا منفصلون عن هذا هو ما يشعرنا بالحزن، مثلما نشعر بأننا منفصلون عمن هم على شاكلتنا. "إن الحرب لا تحطم فقط عظام الناس، ولكنها تُحطم أيضًا العلاقات الإنسانية"، كان يقول لى هذا فى كابول ذلك الشخص المُبدع جينو سترادا. ولإصلاح العلاقات، فى مستشفى الطوارئ؛ وحيث يتم إصلاح كل عطب فى الجسد، لدى سترادا ملجأ يعيش فيه الجنود الطالبانيون الشبان، على بعد خطوتين من "الأعداء"، جنود حلف الشمال. بعضهم سجناء والبعض الآخر لا، ولكن "سترادا" يتمنى أن تتمكن الإعاقات المتشابهة، والجروح المتشابهة، من أن تُقرب بينهما.

إن الحوار يساعد بشكل كبير جدا على حل الصراعات. إن الكراهية لا تخلق سوى الكراهية. يقتل أحد القناصة الفلسطينيين امرأة إسرائيلية فى سيارة، ويكون رد فعل الإسرائيليين قتل اثنين من الفلسطينيين، يقوم أحد الفلسطينيين بارتداء حزام ناسف ويذهب ليفجر نفسه مع عشرات من الشباب الإسرائيلى الجالسين فى مطعم للبيتزا، يرسل، فى المقابل، الإسرائيليون طائرة هيليكوبتر لتقصف حافلة صغيرة تقل فلسطينيين، الفلسطينيون.... وهكذا. حتى متى؟ حتى ينتهى كل الفلسطينيين؟ كل الإسرائيليين؟ حتى تنفد كل القنابل؟

بالتأكيد، لكل صراع أسبابه، ولابد من مواجهتها. ولكن لن يفيد أى شيء إذا لم يقبل كل طرف وجود الطرف الآخر وكونه مساويا له، لن يتم هذا إذا لم نقبل نحن بأن العنف لا يقود إلا إلى مزيد من العنف.

أشعر بأننى أقول لنفسي، حتى فى هذا الصمت، كلاما جميلا. ولكن ما العمل؟

يمكن لكل واحد منا أن يفعل شيئا، يمكن لنا جميعًا معًا عمل آلاف من الأشياء.

إن الحرب ضد الإرهاب تُستخدم اليوم لإضفاء الصفة العسكرية (لتسليح) مجتمعاتنا، لننتج المزيد من الأسلحة، لننفق المزيد من النقود على الدفاع. لنعترض، دعونا لا نصوت لمن يدعم تلك السياسة، لنراقب أين نضع مدخراتنا ولنبعدها عن شركة لديها أى علاقة، حتى ولو من بعيد، بصناعة السلاح. لنقل ما نفكر فيه، لنقل ما نشعر بأنه الحقيقة: إن القتل هو جريمة فى كل الأحوال.

لنتحدث عن السلام، لنقدم ثقافة السلام فى تعليم الشباب. لماذا يجب تعليم التاريخ فقط من خلال سرد سلسلة لا نهاية لها من الحروب والمذابح؟

لقد اضطررت إلى الحضور، بكل ما درسته فى الغرب، إلى آسيا لكى أكتشف "أشوكا"(*)، إحدى الشخصيات الرائعة فى العصر القديم، واحد من الذين عاشوا منذ ثلاثة قرون قبل الميلاد، وفى قمة قوته، فى اللحظة التى فيها أضاف مملكة أخرى إلى إمبراطوريته الكبيرة التى كانت تمتد من الهند إلى آسيا الوسطى، أدرك عبث العنف، وقرر أن أكبر الانتصارات، هو انتصار قلب الإنسان، وتخلى عن الحرب، وقام باللغات المختلفة لإمبراطوريته، بحفر على حجارة المبانى مبدأه هذا. تم اكتشاف حجر من أحجار أشوكا باليونانية والآرامية عام ١٩٥٨م فى قندهار، العاصمة الروحية للملا عمر فى أفغانستان، حيث الآن يُعسكر الجنود الأمريكان. وحجر آخر، عليه يعلن أشوكا افتتاح مشفى للبشر وآخر للحيوان، يوجد اليوم فى مدخل المتحف القومى فى دلهى.

(*) أشوكا أو أزوكا، من عظماء أباطرة الهند (٢٧٣ ق.م – ٢٣٢ ق.م)، ينتمى إلى أسرة موريا وكان له جهد كبير فى توحيد شبه القارة الهندية (الهند)، التى تضم حاليا بلادا كثيرة منها أفغانستان أيضا، وله أعمدة شهيرة باسمه نشر عليها أوامر دولته. (المراجع)

إن أسباب الحروب ليست في الخارج، بل بداخل كل منا. إنها في المشاعر مثل الرغبة والخوف، عدم الأمان والشراهة، الغرور والتكبر. لابد أن نحاول التحرر منها ببطء. لابد من أن نغير سلوكنا، لنبدأ في اتخاذ القرارات التي تخصنا وتخص الآخرين على أساس أخلاقيات أكثر ومصالح أقل. لنفعل أكثر ما نراه صالحًا بدلاً من الذي نراه مناسبًا، لنرب أبناءنا على الصدق وليس الخبث.

لنستعد بعض التقاليد الخاصة بالاستقامة، لنعد السيطرة على اللغة والتي فيها كلمة "الله" قد أصبحت اليوم نوعا من الفجور، ولنعد إلى قول "نفعل الحب" بدلاً من القول "نمارس الجنس"، على المدى البعيد تصنع هذه الأشياء الصغيرة فروقًا كبيرة.

إنها اللحظة التي فيها نخرج إلى العراء، إنها لحظة الاهتمام بالقيم التي نؤمن بها، إن الحضارة تكتسب قوتها من التزامها الأخلاقي وليس من أسلحتها الجديدة.

والأهم من هذا كله لابد أن نتوقف مع أنفسنا، أن نأخذ وقتًا في التفكير، في الصمت. كثيراً ما ينتابنا القلق من الحياة التي نعيشها، مثل الرجل الذي يهرب خائفًا من خياله، ومن صوت خطواته. كلما جرى، رأى خياله يتبعه، كلما جرى، زادت ضوضاء خطواته وسببت له الاضطراب، حتى يتوقف ويجلس في ظل شجرة. لنفعل الشيء نفسه.

إذا نظرنا إلى هذه الأيام من وجهة نظر المستقبل، سنجد أنه ما زالت هناك فرصة لعمل شيء ما. لنفعله إذن. أحيانًا كل منا بطريقته، وأحيانًا أخرى جميعنا معًا. إن هذه فرصة مناسبة.

إن الطريق طويل وعلينا أن نبدعه كله، أم أننا نفضل الطريق الهمجي الذي ينتظرنا؟ أو ذلك، المختصر أكثر، الذي يقود إلى انقراضنا؟

أتمنى لكم إذن رحلة سعيدة! سواء خارج ذواتكم أو في داخلها.

المؤلف فى سطور:

تيتزيانو تيرتسانى

كاتب وصحفى إيطالى شهير، وُلد فى ١٤ سبتمبر ١٩٣٨م وتوفى ٢٨ يوليو ٢٠٠٤م، اشتهر بمعرفته الواسعة بشئون شرق آسيا فى القرن العشرين، وبوصفه واحدا من المراسلين الغربيين الذين كانوا شهود عيان على الكثير من الأحداث فى الشرق.

له عدد من المؤلفات، أهمها:

* Pelle di leopardo. Diario vietnamita di un corrispondente di guerra 1972-1973, 1973.
* Giai Phong! La liberazione di Saigon (Giai Phon! The Liberation of Saigon), 1976.
* La porta proibita (The Forbidden Door), 1984.
* Buonanotte, signor Lenin (Goodnight Mr Lenin), 1992.
* Un indovino mi disse (A Fortune Teller Told Me), 1995.
* In Asia (Asia), 1998.
* Lettere contro la guerra (Letters Against The War), 2002.
* Un altro giro di giostra (One More Ride On The Merry Go Round), 2004.
* La fine è il mio inizio (The End Is My Beginning), 2006.
* Fantasmi: dispacci dalla Cambogia (Ghosts: Despatch from Cambogia), 2008.

المترجمة فى سطور:

أمانى فوزى حبشى

حاصلة على دكتوراه فى الأدب الإيطالى فى كلية الألسن، جامعة عين شمس. حصلت على الجائزة الوطنية للترجمة من وزارة الثقافة الإيطالية عام ٢٠٠٣م على مجمل ترجماتها من الإيطالية إلى العربية.

من ترجماتها: إيزابيلا وثلاث مراكب ومحتال لداريو فو ١٩٩٧م، اذهب حيث يقودك قلبك لسوزانا تامارو ١٩٩٨م، بيرانيدللو على خشبة المسرح - لويجى سكوارتزينا ٢٠٠٢م، القلب السمين (للأطفال) تأليف سوزانا تامارو، شجاعة طائر الحناء لماوريتزيو ماجانى عام ٢٠٠٦م، ثلاثية أسلافنا لإيتالو كالفينو (تحت الطبع).

المراجع فى سطور:

حسين محمود

أستاذ مساعد اللغة الإيطالية ورئيس قسمها فى كلية الآداب، جامعة حلوان. ناقد أدبى لمجلات عربية ومصرية (مقالات نقدية حول الأدبين العربى والعالمى)، صحفى حر، وعضو هيئة تحرير ببليوجرافيا الأدب الإيطالى العالمية - دار نشر ساليرنو - روما، له أعمال عديدة بالعربية والإيطالية، منها: "صورة محمد فى الإعلام الإيطالى"، "موقف النقد الأدبى العربى من إبداع الكاتبات اليمنيات"، "التأثير الثقافى للأدب الإيطالى على الأدب العربى"، "الكتاب المهاجرون العرب فى إيطاليا".

ومن ترجماته إلى اللغة العربية: "السيدة لا تصلح إلا للرمى - داريو فو" و"الإسلام، ذلك المجهول فى الغرب - ريتا دى ميليو"، "يسوع الناصرى - جوزيف راتزنجر" و"محادثة فى صقلية - إليو فيتورينى" و"الدمعة الأخيرة - ستفانو بينى".

التصحيح اللغـــوى: عبد الرحيم الحجراوى

الإشـــراف الفنى: حـــسن كـــامـــل